حراس الشريعة

مجلة إسلامية شهرية

العدد العاشر – صفر ١٤٣٥

الصدمة استراتيجية المرحلة

محمد فرحات

أسطورة الكرازة المرقسية

هيثم سمير

سياسة الخطأ!

خالد بهاء الدين الأزهري

الصديقية

محمد يوسف الزهري



هيئة التحرير

خالد بهاء الدين الأزهري

عمرو بسيوني - محمد عبد الواحد

مدير التحرير

معتز رضا زاهر

تصميم وتنفيذ

شركة Active للدعاية الرقمية والإعلان المطبوع

المدونة: http://alhorras.wordpress.com

فيس بوك: facebook.com/AlHorras

تويتـــــــر: twitter.com/ALHorras

البريدالإليكتروني: info@alhorras.net

الموقع الإليكتروني: www.alhorras.net



الحمد لله وحده ..

لا يمكنك أن ترد واقع التجريف الثقافي وضحالة الوعي المنتشرة بين المسلمين اليوم إلى عامل واحد.
الظروف السياسية والاقتصادية، ومناهج التعليم، والأمية التربوية، وخنق الاستبداد للمجتمع ومحاصرته له=كل تلك العوامل وغيرها ساهمت في هذه النتيجة المحزنة والخطيرة في الوقت نفسه.

وساهمت الثورة المصرية والمتغيرات الاجتماعية والسياسية بعدها في زيادة واقع التجريف، وذلك بسبب التداعي المجتمعي تحت وطأة الحروب السياسية التي عاشها الناس خلال العامين الماضيين، خاصة مع انشغال كبرى الحركات الاجتماعية الإسلامية وغير الإسلامية في أتون السياسة الملتهب.

فسيلة المؤمن، الأشياء الصغيرة الفعالة، اجتماع النقط، طلب الفتح بطول الطَرْق، كل تلك المعاني هي ما يفتح للناس أفق الإصلاح رغم ضعف ما بين أيديهم من الإمكانات، وهي في الوقت نفسه ما يقطع عليهم باب العذر؛ إذ لا قعود حينئذ إلا من كسل وعجز.

بين صفحات هذه المجلة ستقابلك مجموعة من الأقلام تكسر الحدود ولا تعرف غير الإسلام رابطة تجتمع عليها؛ لتشترك في هم أساسي واحد هو محور اجتماعهم بقطع النظر عن مواطن اتفاقهم واختلافهم الأخرى؛ إنه هم الثقافة والوعي، وسبل إعادة إخصاب هذه الأرض المجرفة، واستثمار ما فيها من بقايا البذور ومكاثرتها، وتعاهدها بالسهر والري، وقتل ما قد يعرض لها من الآفات التي تريد اغتيالها قبل أن تؤتي أكُلها.

لم تجتمع هذه النخبة لتحملك على موافقتها الرأي، وإنما لتحرضك على تجويد صناعة الرأي.
لم تجتمع هذه النخبة لتصنع منك نسخة منها بل لعلها لا ترجو شيئًا كرجائها أن تكون نسيج وحدك.
لم تجتمع هذه النخبة لتلقنك أفكارها، وإنما لتقيم لك أمثلة في طرائق إقامة الأفكار؛ لتقيم أنت صروح أفكارك.

الدين والوحي والفقه والوعظ والأدب والسياسة والفلسفة والاجتماع والتاريخ وكل ما له صلة بتجويد صناعة التفكر ستجدونه بين جنبات هذه المجلة، تعاملوا معه على أنه بذور منثورة، وتابعوا معنا ومع غيرنا ومع أنفسكم مثنى وفرادى، وارتقبوا وقت حصاد ثمار أنفسكم بعد هذا البذر الطويل، وآتوا حقه يوم حصاده، واشكروا لله واعبدوه.

وعلى الله قصد السبيل، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

هيئة التحرير



دراسة السيرة النبوية

البشير عصام

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه.

أما بعد: فإن دراسة السيرة النبوية المطهرة من أعظم ما ينبغي الاحتفاء به، والاعتناء بتحصيله، على عوام المسلمين وخواصهم، لما في ذلك من الفوائد الجليلة التي تعود عليهم في دنياهم وأخراهم.

ويكفي للاقتناع بأهمية الاطلاع على السيرة - بل التبحر فيها - أن يُعلم أن محبة النبي صلى الله عليه وسلم من أصول الدين وقواعده، التي لا يتم إيمان المؤمن إلا بها. وهذه المحبة لا تستقر في قلب المسلم إلا بعد معرفة رسول الله صلى الله عليه وسلم تمام المعرفة، وإلا كان التكليف بمحبته مع الجهل بخصاله وصفاته الخِلقية والخُلقية من باب التكليف بما لا يطاق! ومهما زادت معرفة المسلم بإمامه وقدوته عليه الصلاة والسلام فإن محبته في القلب تزيد وتعظم.

وإذا علمت أهمية دراسة السيرة النبوية، فإن من اللازم وضع الخطط المحكمة، واتباع المناهج الصحيحة لتحصيل ذلك، وإلا كانت قراءة فوضوية، لا تبني علمًا، ولا تؤسس قاعدة معرفية صلبة.

السيرة علم!

كانت السيرة في بداياتها فرعًا من علمي الحديث والتاريخ، ثم ما لبثت أن استقلت، وصارت علمًا قائمًا بذاته، له مؤلفاته ومناهجه العلمية الخاصة.

ولا ريب أن الجانب الوعظي والدعوي في السيرة النبوية المطهرة عظيم القدر، جليل الشأن، ولكن لا ينبغي أن يغطي على الجانب العلمي فيها؛ فالسيرة تدرس كما تدرس العلوم الشرعية الأخرى، وبالمناهج نفسها من حفظ وفهم ودراسة ومذاكرة ومطالعة ونحو ذلك -، وتزيد بأن فيها جانبًا عظيمًا من ترقيق القلوب، وإصلاح النفوس، وتربية المهج على محبة صاحبها، الحبيب المجتبى صلى الله عليه وسلم.

وقد غلط في هذا الموضع أكثر العصريين، فتعاملوا مع السيرة في جوانبها الوعظية والدعوية فقط، وأهملوا الجانب العلمي الدقيق؛ ولذلك صرنا نرى أكثر طلبة العلم يطالعون كتب السيرة العصرية السهلة، التي تعنى باستنباط الفقه الدعوي والحركي وما أشبه ذلك، فيحصل لهم تقصير شديد في جانب تحصيل المعلومات المجردة، واختزانها في الذاكرة.

ولذلك يندر اليوم طالب العلم الذي يستطيع استحضار بعض المعلومات السهلة التي يقبح جهلها، مثل أسماء زوجات النبي صلى الله عليه وسلم، أو نسبه الشريف، أو ترتيب الغزوات في الزمن، ونحو ذلك.

ولو أن الطالب حفظ في هذا الفن متنًا جامعًا، وأتقن فهمه، وذاكر هذا الفن في كتبه المعتبرة، لكانت هذه المعلومات حاضرة على طرف لسانه!

مصادر السيرة النبوية:

يمكن تقسيم مصادر السيرة النبوية إلى ثلاثة أقسام كبيرة:

أولها: المصادر الأصلية

وعلى رأسها القرآن الكريم، فإن فيه ذكرًا لكثير من أحداث السيرة المكية والمدنية، ويستعان على فهمها بكتب التفسير، خاصة منها التفسير بالمأثور.

ثم كتب السنة التي تعقد أبوابًا خاصة للمغازي والسير، ويضاف إليها ما في كتب الرجال والتراجم من التحقيقات العلمية لكثير من الأحداث المتعلقة بالصحابة خصوصًا.

ومن ضمن كتب السنة: كتب الشمائل النبوية (ومن أشهرها الشمائل للترمذي، وأخلاق النبي وآدابه لأبي الشيخ، والأنوار في شمائل النبي المختار للبغوي...)، وكتب دلائل النبوة (ومنها دلائل النبوة لأبي زرعة، وأعلام النبوة لأبي داود، ودلائل النبوة للفريابي والسرقسطي والطبراني وأبي نعيم والبيهقي...)، وكتب الخصائص (وقد جمع أكثرها السيوطي في كتابه المشهور، على ما فيه من قلة التحقيق والتمحيص).

ثم تأتي كتب المغازي والسير الأصلية، وعلى رأسها سيرة ابن إسحق، التي هذبها ابن هشام، وشرحها السهيلي في الروض الأنف. وقد صارت هذه السيرة عمدة كل المتكلمين في هذا الفن، حتى طمست كثيرًا من المصادر الأخرى، إلا عند أهل التحقيق والتدقيق، فإن لهم منهجًا دقيقًا واضحًا في التعامل مع هذه المصادر جميعها.

ومن كتب المغازي المشهورة: مغازي الواقدي. وفي طبقات ابن سعد نقول كثيرة عن الواقدي في هذه المباحث.

والقسم الثاني: المصادر الفرعية



وهي الكتب التي تعتمد على المصادر الأصلية في مادتها العلمية، وأغلبها من تصنيف المتأخرين.فمنها كتب جامعة في السيرة، منها كبير وصغير، مثل: الدرر في اختصار المغازي والسير لابن عبد البر، وعيون الأثر لابن سيد الناس، وسبل الهدى والرشاد للصالحي، والمواهب اللدنية للقسطلاني، وزاد المعاد لابن القيم (وهو إلى معنى «فقه السيرة» أقرب) وغيرها مما لا سبيل لإحصائه.

ومنها كتب التاريخ العام، والتراجم والطبقات: مثل تاريخ الأمم والملوك للطبري، والبداية والنهاية لابن كثير، وتاريخ الإسلام للذهبي، وسير أعلام النبلاء له. ففي هذه الكتب خاصة عند ابن كثير والذهبي فصول عظيمة النفع في فن السيرة النبوية، أكثر طلبة العلم عنها غافلون!

ومنها كتاب تاريخ الحرمين، مثل تاريخ مكة للأزرقي والفاكهي، وتاريخ المدينة لابن شبة، والعقد الثمين في تاريخ البلد الأمين لتقي الدين الفاسي، وخلاصة الوفا بأخبار دار المصطفى للسمهودي.
ومنها كتب في التعريف بحقوق رسول الله صلى الله عليه وسلم، مثل كتاب الشفا بتعريف حقوق المصطفى للقاضي عياض، والصارم المسلول على شاتم الرسول لابن تيمية.

ومنها الكتب العصرية الجامعة مثل: نور اليقين للخضري، والرحيق المختوم للمباركفوري.
ثم الكتب العصرية المعتنية بما يسمى «فقه السيرة»، مثل: كتاب السباعي والغزالي والبوطي. وأغلب ذلك مجموع في كتاب الصلابي: السيرة النبوية عرض وقائع وتحليل أحداث.

والقسم الثالث: المتون وما يتعلق بها:

وهي كثيرة، لكنها غير مشتهرة عند طلبة العلم، لما أسلفنا من قلة عنايتهم بالجانب العلمي المحض في هذا الفن.

فمن أصغرها: (الأرجوزة الميئية) لابن أبي العز الحنفي، وهي منظومة في مائة بيت، سرد فيها صاحبها أحداث السيرة مرتبة. لكن فيها نقص كبير في أشياء هي من صميم هذا العلم.

وبعدها منظومة (قرة الأبصار في سيرة المشفع المختار) لعبد العزيز اللمطي المكناسي (توفي سنة ٨٨٠)، وهي في أكثر من ثلاثمائة بيت من الرجز. وفي بعضها حشو لا يحتاج إليه، لو أزيل لنقص عدد أبياتها، وسهل حفظها دون إخلال بمقاصدها.

ومن أمثلة الحشو: أنه نظم قصة نذر عبد المطلب ذبح ابنه عبد الله، في نحو عشرة أبيات، وحقها أن تختصر في بيت أو بيتين!

ومن أمثلته أيضًا: أنه يجعل عنوان كل باب بيتًا منظومًا، كقوله مثلًا:

بيانُ مبعث النبي الهادي = صلى عليه خالق العباد

وفي هذه المنظومة مع ذلك، أبيات مختصرة نافعة، مثل نظمه للنسب الشريف إلى عدنان بقوله:

(معٍ شهٍ عقٍ كمٍ كلْغَفَمِنْ = كخمٍ أمِنْ معٍ، إلى هنا زُكن)

فكل حرف منها هو أول حرف من أسماء آباء النبي صلى الله عليه وسلم:

محمد بن عبد الله بن شيبة (وهو عبد المطلب) بن هاشم بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان.

وقوله إلى هنا زُكن: أي عُلم، لأن ما فوق عدنان من الأسماء غير معلوم بيقين.

وهذه الأسماء منظومةٌ في أربعة أبيات في نظم (عمود النسب) للبدوي بقوله:

النسب الذي عليه اتفقا = كل الورى إذ بالنبي أشرقا

أحمد عبد الله عبد المطلب = وهاشم عبد مناف المنتخبْ

ابن قصي بن كلاب مره = كعب لؤي غالب الغرّه

فهر بن مالك ونضر ذو السّكّهْ = كنانة خزيمة فمدركه

إلياسها مُضرها نزارُ = معد عدنان انتهى الخيارُ

ونظمتُها بقولي:

أبوه عبدُ الله، عبد المطلبْ = لِهاشمٍ، عبدِ منافٍ ينتسبْ
قصيُّهم، كلابُ، مرةٌ، خُذَا = كعبُ، لؤيٌّ، غالبٌ، فهرٌ، كذا
ومالكٌ، نضرٌ، كنانةٌ وُجِدْ = خزيمةٌ مدركةٌ إلياس، زِدْ
ومضرٌ، نزارُهم، مَعَدٌّ = عدنانُ، ليس فوقَه يعدُّ

ومن شروح هذه الأرجوزة: بغية الأبرار لمحمد الحسن الخديم، ونزهة الأفكار لعبد القادر المجلسي، وغيرهما.



ومن المنظومات في السيرة أيضًا: (ذات الشفا في سيرة النبي المصطفى) لابن الجزري المقرئ المحدث المشهور، وهي في نحو خمسمائة بيت. وقد شرحها: محمد بن الحاج الكردي في (رفع الخفا).

ومنها أيضا: (نظم الغزوات) للبدوي الشنقيطي، وهو نظم نفيس، عظيم النفع جدًّا. ومن شروحه الحسنة: (إنارة الدجى) لحسن المشاط المالكي، و(روض النهاة) لحماد المجلسي، وفيه استدراكات على شرح المشاط.

وأطول منظومات السيرة: ألفية العراقي، وعليها شرح وسط لعبد الرؤوف المناوي مشهور متداول.

الطريقة المقترحة لدراسة السيرة النبوية

لا ريب أن أفضل مناهج دراسة العلوم الشرعية وأنجعها: ما جمع بين دراسة المتون بالطريقة التقليدية، ومذاكرة الكتب بالطريقة العصرية.

ولذلك فالمقترح أن يحفظ الطالب متنًا جامعًا، كألفية العراقي مثلًا. ويمكنه أن يحفظ بدلًا منها: متن قرة الأبصار، مع تكميل ما ينقصه من نظم الغزوات للمجلسي.

ولا بد من قراءة ما تيسر من شروح هذه المتون، فيكون بذلك قد أحاط بأكثر مباحث السيرة، التي يحتاج فيها إلى حفظ وضبط.

وإلى جانب هذا، فمن المتعين أن يتعامل الطالب مع بعض كتب السيرة الجامعة التي ألفها المتقدمون؛ فيقبح بطالب العلم ألا يكون من ضمن مقروءاته مثلًا: سيرة ابن هشام وشرحها للسهيلي، أو عيون الأثر لابن سيد الناس، أو الشمائل للترمذي، أو زاد المعاد لابن القيم، أو ما أشبه هذه المؤلفات النافعة.

وعلى الطالب أن يستكثر من القراءة في فن السيرة، من كتب المتقدمين خصوصًا، فإن التمكن من هذا الفن لا يأتي إلا بعد تمرس طويل بالكتب المعتبرة فيه.

ولا بأس أن يكمل قراءته ببعض كتب المعاصرين، ويكفيه في نظري - كتاب (السيرة النبوية) للصلابي.

والله الموفق.



الصديقية

محمد يوسف الزهري

الحمد لله وحدَه، والصلاة والسلام على مَن لا نبيَّ بعدَه، وعلى آله وأصحابه أجمعين.

أما بعد؛ فإنَّ من أقدار الله تعالى وحِكَمه في خَلقه: أنَّه فاضلَ بين مخلوقاته، ورفع بعضَ خلقه على بعضٍ درجاتٍ؛ كما قال سبحانه: ﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ ﴾ [القصص: ٦٨].

ففضَّل رسلَه وأنبياءَه عليهم الصلاة والسلام على سائر خلقه.
وفضَّل نبيَّنا محمدًا صلى الله عليه وسلم عليهم، وعلى سائر الخلق أجمعين.
واختارَ أصحابَه رضي الله عنهم واختصَّهم لصُحبته من جملة العالَمين.
وفضَّل البلدَ الحرامَ على سائر البِقاع؛ فجعلَه مناسكَ لعبادِه، وأوجبَ عليهم الإتيانَ إليه مِن كلِّ فجٍّ عميقٍ.
وفضَّل يومَ الجمعة على سائر أيَّام الأسبوع، ورمضانَ على باقي الشُّهور، وليالي عشره الأخير على سائر اللَّيالي، وجعلَ ليلةَ القَدر أفضلَ من ألف شهر.

ومن ذلك: أنَّه سبحانه جعلَ عبادَه المؤمنين متفاوِتين في إيمانِهم وفي عبوديَّتهم له عزَّ وجلَّ، يتفاضلونَ فيما بينَهم في أعمال القلوب وفي أعمال الجوارح، كما بين السَّماء والأرض، خلافًا للمُرْجِئة - من الجهميَّة والأشاعرة وغيرهم -، ومَن وافقَهم - كالمعتزلة والخوارج -، الذين يقولون بأنَّ الإيمان شيء واحد لا يتعدَّد، وأهله فيه سواء؛ فهو لا يزيد ولا ينقص!

وما ازدادَت درجاتُ المؤمنين عند ربِّهم إلا بزيادة درجاتهم في العبوديَّة؛ ((فكمال المخلوق في تحقيق عبوديَّته لله، وكلَّما ازدادَ العبدُ تحقيقًا للعبوديَّة ازدادَ كمالُه وعلَت درجتُه)) العبوديَّة لابن تيميَّة (ص ٧٥).

وأعلى مراتب البشر بعد النبيِّين في تحقيق العبوديَّة هي: مرتبة الصِّدِّيقيَّة، والصِّدِّيقون المنعَم عليهم هم أفضل الناس على الإطلاق بعد الأنبياء والرُّسُل.

و(الصِّدِّيق) في اللُّغة: وصف مبالغة من الفِعل الثلاثي (صَدَقَ)؛ بمعنى: المبالغة في الوَصْف بالصِّدْق.
ويجوز أن يكون مشتقًّا من الفِعل الثلاثي المضعَّف (صَدَّق)؛ بمعنى: الوَصْف بالمبالغة في التصديق. [البحر المحيط لأبي حيَّان (٣/ ٥٤٥)، والدُّرّ المصون للسمين الحلبي (٤/ ٣٧٨)، والتحرير والتنوير للطاهر بن عاشور (٦/ ٢٨٦، ١٢/ ٢٨٤، ١٦/ ١١٢)].

فالصِّدِّيق هو: الملازِم للصِّدق، والصِّدْق خلاف الكَذِب، يُقال: صدَقَ في الحديث، وصَدَقَه الحديثَ. [الصحاح للجوهري (٤/ ١٥٠٥) ، ومعجم مقاييس اللغة لابن فارس (٣/ ٣٣٩)].

ومن أحسن التعاريف التي وقفتُ عليها لتعريف (الصِّدِّيق): تعريف الطاهر بن عاشور رحمه الله؛ حيث قال: هو ((لقبٌ جامعٌ لمعاني الكمال واستقامة السُّلوك في طاعة الله تعالى))؛ لأنَّ تلك المعاني لا تجتمع إلا لِـمَن قَوِيَ صِدقُه في الوفاء بعَهد الدِّين. [التحرير والتنوير (١٢/ ٢٨٤)].

وهذا تعريفٌ جامعٌ مانِعٌ عامٌّ. وقد خصَّ بعضُ العلماء أفرادًا منه بالذِّكر؛ فقيل في تعريفه: ((هو الذي لم يدَع شيئًا مما أظهره باللِّسان إلا حقَّقه بقلبه وعمَله)). [التعريفات للجرجاني (ص ١٧٤)]، وقيل: ((مَن صدَّق قولُه اعتقادَه، وحقَّقَ صِدْقَه فِعْلُه)). [التوقيف على مهمات التعارف للمناوي (ص ٢١٤)]، وقيل غير ذلك.

وعلى هذا عرَّف الإمامُ ابنُ القيِّم رحمه الله مرتبة الصِّديقيَّة بأنها: ((كمال الانقياد للرَّسول، مع كمال الإخلاص للمُرْسِل)). [مدارج السالكين لابن القيم (٢/ ٢٧٠)].

وقال: هي ((كمال الإخلاص والانقياد والمتابعة للخبر والأمر، ظاهرًا وباطنًا)). [المدارج (٢/ ٢٧٣)].
وقال أيضًا: هي ((كمال الإيمان بما جاء به الرَّسول عِلْمًا وتصديقًا وقيامًا به ... فالصِّدِّيقيَّة شجرة، أصولها: العِلْم، وفروعها: التَّصديق، وثمرتها: العَمَل)). [مفتاح دار السعادة (١/ ٢٩٩)].

فالصِّدِّيق بلغَ النِّهاية في الصِّدْق مع ربِّه ومع الناس؛ وهذا ((لكمال بصيرته، حتى كأنه قد باشرَ بصرُه ممَّا أخبرَ به الرسول صلى الله عليه وسلم ما باشر قلبُه؛ فلم يبقَ بينَه وبين إدراك البصر إلا حِجاب الغيب؛ فهو كأنَّه ينظر إلى ما أُخبِرَ به من الغيب من وراء ستوره! وهذا لكمال البصيرة)). [بدائع الفوائد (١/ ١٢٧)].

((فمَثَلُ حال الصِّدِّيق مع النبيِّ؛ كمَثَل رجلَين دخلا دارًا؛ فرأى أحدهما تفاصيلَ ما فيها وجزئياته، والآخر وقعَت يدُه على ما في الدار ولم يرَ تفاصيلَه ولا جزئياتَه، لكن عَلِمَ أنَّ فيها أمورًا عظيمة لم يُدرِك بصرُه تفاصيلَها.
ثم خرجا؛ فسألَه عمَّا رأى فى الدار؛ فجعلَ كلَّما أخبره بشيءٍ صدَّقه؛ لِمَا عنده من شواهده! وهذه أعلى درجات الصِّدِّيقيَّة)). [المدارج (١/ ٤٤٣)].

فالصِّدِّيقون هم القائمون بما بُعِثوا به، عِلْمًا وعملاً ودعوةً وهدايةً وإرشادًا وصبرًا وجهادًا، على طُرُق الرُّسل ومناهجِهم؛ فهم الرَّبانيُّون، والرَّاسِخون في العِلْم، وورَثة الرُّسل وأئمَّة أتباعهم، وخلفاؤهم في أُمَمِهم، والوسائِط بينَهم وبين أُمَمِهم، وأولياؤهم وحِزبهم وخاصَّتهم وحملَة دينهم، وهم المضمون لهم أنَّهم لا يزالون على الحقِّ لا يضرُّهم مَن خذلَهم ولا مَن خالفَهم حتى يأتي أمر الله وهم على ذلك. [طريق الهجرتين لابن القيِّم (ص ٣٥١)].

وعلى هذا؛ فلا غرابة أن تكون الصِّديقيَّة هي أعلى درجات المكلَّفين السُّعداء المُنعَم عليهم بعد مرتبة النُّبوَّة والرِّسالة، وأرفَع درجات الكمال والإيمان بعدها، ((وأفضَل مواهب العبد وأعظَم كراماته التي يُكرَم بها، وليس بعدَ درجة النُّبُوَّة إلا هي؛ ولهذا جعلَها سبحانه بعدها فقال: ﴿وَمَن يُطِعِ اللَّـهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَـٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّـهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُولَـٰئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء: ٦٩].

وهذا هو السِّرُّ الذي سبقَ به الصِّدِّيقُ أبو بكر رضي الله عنه، لا بكثرة صومٍ ولا بكثرة صلاةٍ، وصاحبُ هذا هو الذي: يمشي رويدًا ويجي في الأوَّلِ!)). [بدائع الفوائد (١/ ١٢٨) بتصرُّف يسير].

وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّـهِ وَرُسُلِهِ أُولَـٰئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ ۖ وَالشُّهَدَاءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ ۖ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَـٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ [الحديد: ١٩]؛ فقدَّم في الآية الصِّدِّيقين على الشُّهداء، هذا على قراءة الوَقف على (الصِّدِّيقون)، ثم يبتدئ الكلامُ عن الشهداء، وهو قول ابن عبَّاس رضي الله عنهما، وترجيح إمام المفسِّرين الطبري. [تفسير الطبري (٢٢/ ٤١٥)].

وعلى قراءة الوَصل بما بعدها يكون للشُّهداء معنى آخر؛ وهم: الذين يَسْتَشْهِدُهم الله تعالى على الناس يوم القيامة؛ كما في قوله سبحانه: ﴿لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ [البقرة: ١٤٣]؛ ((فوصفَهم بأنَّهم صِدِّيقون في الدُّنيا، وشهداءُ على الناس يوم القيامة)). [طريق الهجرتين (ص ٣٥١)].



وثبتَ من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه، أنَّ النبي صلى الله عليه وسلم صعدَ أُحُدًا وأبو بكر وعمر وعثمان؛ فرجَفَ بهم؛ فقال صلى الله عليه وسلم: «اثبُت أُحُد؛ فإنَّما عليك: نبيّ، وصِّدِّيق، وشهيدان». [رواه البخاري (٣٦٧٥)]؛ فقدَّم صلى الله عليه وسلم (الصِّدِّيق) على (الشَّهيد)، وثنَّى به بعد درجة النُّبوَّة.

((ولهذا كان نعتُ الصِّدِّيقيَّة وصفًا لأفضل الخَلق بعد الأنبياء والمرسَلين، أبي بكر الصِّدِّيق رضي الله عنه، ولو كان بعد النُّبوَّة درجة أفضل منها لكانت نعتًا له رضي الله عنه)). [طريق الهجرتين (ص ٣٥١)]

فدلَّ ذلك على فضلِ الصِّدِّيقيَّة وتقدُّمِها على غيرها من المراتب.

وقد يوصَف النَّبيُّ بالصِّدِّيق؛ كما أُطلِق على إبراهيم، وإدريس، ويوسف عليهم السَّلام؛ مبالغةً في اتصافِهم بالصِّدْق في امتثال أمر الله تعالى.

فلا تفضل الصِّدِّيقيَّة شهادةٌ ولا غيرُها.

لكن قد يكون الشَّهيد صِدِّيقًا، وتعلو صِدِّيقيَّتُه على صِدِّيقيَّة بعض الصِّدِّيقين، فيفضُل على الصِّدِّيق المجرَّد الذي لا يُساويه في صِدِّيقيَّته؛ كفضل عمر وعلي وعثمان رضي الله عنهم على صِدِّيقي الأُمَّة - غير أبي بكر - ؛ فهُم شهداء في أعلى مراتب الصِدِّيقيَّة.

ومن بديع تعبيرات ابن القيِّم رحمه الله قولُه: ((الصِّدِّيقون هم أئمَّة أتباع الرُّسل، ودرجتهم أعلى الدَّرجات بعد النُّبوَّة. وإنْ جرَى قلَمُ العالِم بالصِّدِّيقيَّة وسالَ مِداده بها؛ كان أفضلَ مِن دم الشهيد الذي لم يلحَقْه في رُتبة الصِّدِّيقيَّة! وإنْ سالَ دمُ الشَّهيد بالصِّدِّيقيَّة وقطرَ عليها؛ كان أفضل مِن مِداد العالِم الذي قصر عنها؛ فأفضلُهما: صِدِّيقهما، فإنْ استويا في الصِّدِّيقيَّة استويا في المرتبة. والله أعلَم)). [مفتاح دار السعادة (١/ ٢٩٨)].

فالصِّدِّيقيَّة بهذا أعلى من الشَّهادة مطلقًا.

تفاوت الصِّدِّيقين فيما بينهم

الصِّدِّيقون يتفاوَتون فيما بينَهم في درجات الصِّدِّيقيَّة نفسِها ومراتبها وأحوالها؛ فالصِّدِّيقيَّة مثلها مثل الولاية والتَّقوى والبرِّ مرتبة تقبل التجزُّؤ والانقسام، والكمال والنُّقصان، بحسب التفاوُت في أصل الإيمان، زيادةً ونقصانًا - كما أجمَع عليه المسلمون -. [طريق الهجرتين (ص ٢٠٠)].

فبحسب كمالِ التقوى، والصِّدقِ في الأقوال باستواء اللِّسان على الأقوال كاستواء السُّنبلة على ساقها -، والصِّدقِ في الأعمال باستواء الأفعال على الأمر والمتابعة كاستواء الرأس على الجسد - ، والصِّدق في الأحوال باستواء أعمال القلب والجوارح على الإخلاص - ، واستفراغ الوُسع وبذل الطاقة في العِلْم والمتابعة والانقياد، وقيام كلِّ ذلك بالمؤمن؛ تكون صدِّيقيَّته.

ولذا كان لأبي بكر الصِّدِّيق رضي الله عنه - كاملِ الصِّديقيَّة - ذروةُ سنام الصِّدِّيقيَّة؛ بحيث صارَ هذا اللَّقَب عَلَمًا عليه وحدَه. [مدارج السالكين (٢/ ٢٥٨)].

وعلى هذا؛ فلا يُشكِل وقوع الذَّنب وظُلم النَّفس من الصِّدِّيق أو الوليّ؛ فالصِّدِّيقون تجوز عليهم جميع الذُّنوب باتفاق الأئمَّة. [مختصر الفتاوى المصرية (ص ١٠٦، ١١٢)]؛ فهم ليسوا بمعصومين.



فاصطفاء الله تعالى للعبد وتقريبه له لا ينافي ظلمَ العبدِ لنفسه أحيانًا بالذُّنوب والمعاصي، وهذا الظُّلم للنَّفس - وهو درجات متفاوتة في القَدر والوَصف - لا ينافي الصِّدِّيقيَّة أوالولاية، ولا يُخْرِج العبد عن كونه من المتَّقين؛ بل يجتمع فيه الأمران: يكون وليًّا لله صدِّيقًا متقيًا، وهو مسيء ظالم لنفسه، يستغفر ربَّه ويتوب إليه، ولا يُصِرُّ على الذَّنب. [طريق الهجرتين (ص ١٩٨، ٢٠٠)].

وقد قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِى جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ ۙ أُولَـٰٓئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴿٣٣﴾ لَهُم مَّا يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ۚ ذَٰلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٣٤﴾ لِيُكَفِّرَ اللَّـهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِى عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ الَّذِى كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [الزمر]؛ فهؤلاء الصِّدّيقون المتقون أخبر ربُّنا تعالى أنَّ لهم أعمالًا سيِّئة يكفِّرها.

وقال صِدِّيق الأُمَّة الأكبر أبو بكر رضي الله عنه للنبيِّ صلى الله عليه وسلم: علِّمني دُعاءً أدعو به في صلاتي؛ فقال: «قُل: اللَّهُمَّ إني ظلَمتُ نفسي ظُلمًا كثيرًا، ولا يغفِر الذُّنوب إلا أنت؛ فاغفِر لي مغفرةً من عندك وارحمني؛ إنَّك أنت الغفور الرَّحيم». [رواه البخاري (٨٣٤)، ومسلم (٢٧٠٥)].

والأدلَّة الدَّالة على وقوعِ الذَّنب من المؤمنين والمتَّقين، واستغفارِ الأنبياء والمرسَلين ودعائهم مغفرةَ ذنوبهم -أكثر من أن تُذكَر في هذا المقام.

ونُكتة المسألة: (أنَّ الصِّدِّيق - بل والنبي - إنَّما كمُلت مرتبته وانتهَت درجتُه، وتمَّ عُلُوُّ منزلته، في نهايته لا في بدايته! وإنَّما نالَ ذلك بفِعْل ما أمرَ الله به، ومن الأعمال الصالحة، وأفضلها التوبة، وما وُجِدَ قبل التوبة فإنَّه لم يُنقِص صاحبَه، ولا يُتصوَّر أنَّ بشرًا يستغني عن التوبة؛ كما في الحديث: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ؛ تُوبُوا إِلَى اللهِ؛ فَإِنِّي أَتُوبُ فِي الْيَوْمِ إِلَيْهِ مِائَةَ مَرَّةٍ) رواه مسلم (٢٧٠٢)، وفي رواية: (إِنَّهُ لَيُغَانُ عَلَى قَلْبِي، وَإِنِّي لَأَسْتَغْفِرُ اللهَ فِي الْيَوْمِ مِائَةَ مَرَّةٍ)). [مختصر الفتاوى المصرية (ص ١١٢) بتصرُّف يسير].

وأخيرًا؛ فالصِّدِّيق ما فُضِّل على غيره إلا لكمال عبوديَّته لله تعالى بعد الأنبياء والمرسَلين؛ فمَن استحضرَ هذا كان له أكبر الأثر في حثِّه وتحريضه على السعي لتحقيق العبوديَّة لله تعالى على أكمَل صُوَرِها؛ مما يقوِّي إيمانَه بربِّه، ويزيدُ يقينَه بوعدِه سبحانه وموعوده.

نصيحة

فعلى المسلم دومًا أن يطلبَ الأكملَ في دِينه - كما يسعى بكل جُهْدِه في طلب الأكمل في دُنياه - ، وعليه أن يَحْرِص على طلب معالي الأمور والسَّعي إلى أعلى معالي المنازِل ممَّا رغَّبَ الشرعُ فيه؛ فهذا من سجايا الإسلام، وهو سبيلُ صِدِّيقي الأُمَّة قديمًا وحديثًا:

فَلاَ تَشْتَغِلْ إِلاَّ بِمَا يُكْسِبُ العُلَى *** وَلاَ تَرْضَ للنَّفْسِ النَّفِيسَةِ بالرَّدِ

وفي الحديث: ((إِنَّ اللهَ يُحِبُّ مَعَالِيَ الْأُمُورِ وأَشْرَافَهَا، وَيَكْرَهُ سَفَاسِفَهَا)). [رواه الطبراني في الكبير (٣/ ١٣١)، وصحَّحه الألبانيُّ بشواهده في الصحيحة (١٦٢٧)].

ومَن طمحَت نفسُه إلى الهِمَّة العالية؛ فلا يكون هذا إلَّا بإنفاق العُمر وبذل النفيس والغالي في تعلُّم الوحي - قرآنًا وسُنَّة -، والعمَل به، والدَّعْوَة إليه، وتحمُّل الأذى في سبيل ذلك، والأخذِ بكلِّ الوسائل المتاحة في التفقُّه فيه، والسَّيْر على طريق النبيِّ صلى الله عليه وسلم وعلى منهاجه: عِلْمًا، وعملًا، ودعوةً، وصبرًا، وجهادًا.

ولا يُنال هذا بالنَّوم والرَّاحة، ولا بالبطالة، ولا بالتمنِّي والتشهِّي الكاذِب!

أتطلُب بالونَى نَيْلَ المعالي *** أنطتَ إذَنْ رجاءَك بالمُحالِ
سَبيلُ المَجْدِ ليس يمرُّ إلَّا *** بِفَتِّ الصَّخْرِ أو هَدِّ الجِبالِ

فلا يختلفُ عُقلاء العالَم على أنَّ ((المكارِم مَنوطة بالمكارِه، والسَّعادة لا يُعبَر إليها إلَّا على جِسْر المشقَّة؛ فلا تُقطَع مسافتها إلَّا في سفينة الجِدِّ والاجتهاد)).

قال يحي بن أبي كثير: ((لا يُسْتَطَاعُ الْعِلْمُ بِرَاحَةِ الْجِسْمِ)) رواه مسلم (٦١٢).

وقد قيل: ((مَن طلبَ الرَّاحة تركَ الرَّاحة)). [مفتاح دار السعادة (١/ ١٠٩)]، و(النَّعيم لا يُدْرَك بالنَّعيم)، و(لا يُدْرِك السَّادَة مَن لَزِمَ الوِسَادة)!

فالجِدَّ الجِدَّ والعملَ والعملَ! وإيَّاك أن تكونَ مِمَّن قال فيهم الشاعر:

نَهارُكَ يَا مَغْرُورُ سَهْوٌ وَغَفْلَةٌ *** وَلَيْلُكَ نَوْمٌ والرَّدَى لَكَ لاَزِمُ
وَتَكْدَحُ فِيمَا سَوْفَ تُنْكِرُ غِبَّهُ *** كَذَلِكَ فِي الدُّنْيَا تَعِيشُ البَهَائِمُ
تُسَرُّ بِمَا يَفْنَى وتَفْرَحُ بالمُنَى *** كَمَا غَرَّ باللَّذَّاتِ فِي النَّوْمِ حَالِمُ

والله نسأل أن يوفِّقنا لما يحبُّه ويرضاه، وأن يستعملنا في طاعته، وأن يجعلنا من عبادِه الصالحين، وأن يمنَّ علينا بأفضاله وبركاته، وأن يتوب علينا وعلى سائر المسلمين، آمين.

وصلى الله وسلَّم على نبيِّنا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله ربِّ العالمين.



أسطورة الكرازة المرقسية

هيثم سمير

هل تعلم عزيزي القارئ أن «الكرازة المرقسية»، هي مجرد أسطورة لا يوجد لها أصل تاريخي؟ الكرازة المرقسية تشير إلى تقليد مستقر في الكنيسة الأرثوذوكسية، يقول بأن القديس مرقس هو أحد الرسل السبعين للمسيح. وعن ذلك يقول مثلًا الأنبا غريغوريوس: «كان القديس مرقس في أورشليم في وقت ظهور السيد المسيح، فكان من أوائل من آمنوا به وقبلوا دعوته، فاصطفاه من جملة السبعين رسولًا». [موسوعة غريغوريوس، الجزء ٣، ص٢١٧]

وأنه أتى إلى مصر، وبشر فيها بالمسيحية، وأنه أول أساقفتها؛ فتقول المؤرخة القبطية إيريس حبيب المصري: «ومرقس -بالنسبة للمسيحيين في أنحاء العالم- هو أحد الأربعة الذين كتبوا الإنجيل. أما بالنسبة لنا معشر القبط فهو كاروز ديارنا المصرية، وحامل بشرى الخلاص، ومؤسس الكنيسة، والبابا الأول للإسكندرية». [قصة الكنيسة القبطية، الباب الأول، ص٢٠]

فالتقليد كما ذكرت لك، يرتكز على هاتين المعلومتين الأساسيتين: مرقس أحد السبعين رسولًا، وأنه أتى مصر وأسس كنيسته بالإسكندرية. يأخذ المسيحي القبطي هاتين المعلومتين بالتلقي، حتى تصبحا عنده أشبه بالعقيدة، فهو لا يحتاج لبرهان، فقد تلقاهما منذ صغره من الأشخاص الذين يثق بهم، وانطبعتا في ذهنه هكذا، دون أن يتبادر إلى ذهنه أي تساؤل حولهما أو عن مصادر ذلك التقليد أو صحته.

أما عن الأسس التي يعتمد كهنة الكنيسة عليها للتأصيل لذلك التقليد، فيقول القمص عبد المسيح بسيط بكل ثقة: «يؤكد جميع الدارسين أن القديس مرقس كان هو الشاب الذي تبع يسوع ليلة القبض عليه، والذي كان لابسًا إزارًا على عريه، فأمسكه الشبان فترك الإزار وهرب منهم عريانًا». [الكتاب المقدس يتحدى نُقاده والقائلين بتحريفه، ص١٢٤]

وبالطبع الدارسون لم يجمعوا على شيء من هذا القبيل؛ بل إن المؤرخين ينكرون كون مرقس أحد السبعين، فمثلًا أندرو ميلر يرى بأن «مرقس هذا لم يكن رسولًا، ولا واحدًا من السبعين». [مختصر تاريخ الكنيسة، ص٥٩]

فمرقس كما هو معروف تاريخيًّا، كان مترجمًا ومساعدًا لبطرس أحد التلاميذ، فهو في «أحد تابعي بطرس»، كما قال يسوابيوس القيصري المؤرخ الكنسي الشهير. [تاريخ الكنيسة، ص: ٧٢]

أما بابياس أسقف هيرابوليس ١١٨م، كما نقل عنه يوسابيوس أيضًا، فيقول عن مرقس أنه «لا سمع للرب ولا اتبعه». [تاريخ الكنيسة، ص١٧٧]

وقد تطول الشهادات بالمقال، لكنها لا تخرج عن هذا المعنى. فتلك كانت الركيزة الأولى للتقليد.

أما الثانية فلم تكن أكثر حظًّا من سابقتها، فلو صدقنا بالادعاء التقليدي للكنيسة، وأقررنا بأن مرقس هو أحد تلاميذ الرسل، فهل يمكن قبول كونه مؤسس الكنيسة السكندرية وأول بابواتها؟ فالحقيقة أن هذه المعلومة التقليدية مبنية على إشاعة! فأقدم مصدر عنها هو ما نقله المؤرخ الكنسي يوسابيوس في القرن الرابع الميلادي، حيث يقول: «يقولون إن مرقص هذا كان أول من أرسلوا إلى مصر، وأنه بشر بالإنجيل الذي كتبه، وكان أول من أسس كنائس بالإسكندرية». [تاريخ الكنيسة، ص: ٧٣]

فلعلك تلاحظ كلمة «يقولون»، فهذه المعلومة التي هي أساس بنيت عليه كنيسة كاملة، تاريخها يرجع لمئات السنين، يستند على كلمة مثل تلك، لم يقدم يوسابيوس عليها أي دليل. علاوة على أن ذهاب مرقس إلى مصر أصلًا هو محل شك تاريخي، إن لم يكن محل إنكار ورفض، فكما يقول المؤرخ إيرنست رينان: «فإن الملامح العامة لحياة مرقص معروفة، وهي في روما، وليس الإسكندرية». (The History of the Origins of Christianity, V4, p. 82)

أما المؤرخ الكبير بروس متزجر فيقول إن «زمن قدوم المسيحية في مصر, ومن أدخلها إليها غير معروف على الإطلاق». (The Early Versions of the New Testament, p.99)

ولو تتبعنا الآباء الأولين سنجد أن كلًّا من: بابياس (القرن الثاني)، إيرينيئوس (القرن الثاني)، وحتى إكليمنضس السكندري (القرن الثاني وبدايات الثالث)، جميعهم لم يذكروا قصة قدوم مرقس لمصر وتأسيسه للكنيسة بها. ولم تعرف هذه المعلومة قبل يوسابيوس وجيروم في القرن الرابع. وبدون تقديم أي دليل على هذه المعلومة؛ بل كما يقول المؤرخ المعروف بروس متزجر، إنها «بناء على تقليد رواه يوسابيوس مستندًا إلى شائعة، تقول إن مرقص الإنجيلي هو أول من أسس الكنائس بالأسكندرية». (The Early Versions of the New Testament, p.99)

فلماذا إذن تم تأسيس هذا التقليد الغير مستند على أي أسس تاريخية؟ بل هو متعارض أصلًا مع ما وصل إلينا من التاريخ وشهادات الآباء الأوائل. والأكثر من ذلك أنه تم اعتباره من المسلمات البديهية في العقل القبطي، حتى تطور الأمر إلى أن يصبح مصدر الفخر والمباهاة للكنيسة.

وعن سبب اختراع الكنيسة لذلك الادعاء وتمسكها الشديد به، يقول إيرنست رينان: «إن التقليد القائل بكرازة القديس مرقص في الإسكندرية هو أحد الاختراعات المتأخرة، سعت الكنيسة الكبيرة من خلاله أن تعطي لنفسها صلة رسولية». (The History of the Origins of Christianity, V4, p. 82)

فالسبب كما اتضح، هو أن الكنيسة تريد أن تعطي لها ولبابواتها وسلطتهم قداسة خاصة، عن طريق ربطها بالرسل، فادعوا أولًا أن مرقس هو أحد السبعين رسولًا، ثم ادعوا أنه أتى إلى مصر وبشر بها وأصبح البابا الأول للكنيسة التي أسسها في الإسكندرية.



ولا عجب في سعيهم في ذلك، فقد سبقتهم الكنيسة الكاثوليكية في نسبة تأسيسها إلى بطرس، ويعتبر الكاثوليك أن البابا يجلس على كرسي بطرس، فكما قال رينان أنه «حين زعمت كل الكنائس أساسًا رسوليًا لها، فإن الكنيسة السكندرية -التي كان لها بالفعل مكانة ملحوظة- أرادت أن تنسب لنفسها ألقابًا تكريمية لم تكن تمتلكها». (The History of the Origins of Christianity, V4, p82)

فكانت تلك المنافسة على الألقاب وعلى السلطان الرسولي، هي الدافع، وأيضًا فإن هذه الصلة تعتبر دليلًا على صحة العقيدة، فهي موروثة عن الرسل.

ويلخص لنا بروس مترجر كل ما سبق في هذه الجملة قائلًا: إن «معظم العلماء يعتبر التقليد بدور مرقص في تأسيس الكنيسة السكندرية هو أسطورة محضة.» (The Early Versions of the New Testament, p.99)

وهو ما يؤيده جان ماسون اليسوعي بالقول «استنادًا إلى كلمة (يقال) الواردة في تاريخ يوسابيوس، أيّد الجميع في وقت لاحق قدوم مرقس إلى مصر، وتطورت واكتملت مع مرور الزمن ما ينبغي أن نسميه: أسطورة القديس مرقس». [إنجيل يسوع المسيح، للقديس مرقس، ص: ٢٤]



سياسة الخطأ!

خالد بهاء الدين الأزهري

أحمد الله عز وجل وأسبح بحمده، وأصلي وأسلم على نبيه وعبده، وآله وصحبه من بعده، وبعد:
فالقول بأن التاريخ لا يعود، وأن حوادث الدهر لا تتطابق؛ لا يعارضه إرجاع حادث -فأكثر- من أحداث التاريخ إلى سبب يعود، أو أسباب متكررة!

التاريخ لا يعيد نفسه؟ نعم، هذا حق، بل لا يستطيع أحد إعادة إنتاجه إن أراد، لكن العبرة في الوقائع والأحداث التاريخية حاضرة لمن أرادها، قائمة شاهدة لمن تتبعها وطلبها، واعظة لمن تأمل وتدبر، وبعد كل ذلك لا بد أن تكون كاشفة لمواضع الخلل والصواب، للاستدراك والتصحيح، أو التوكيد.

وهذه إحدى أهم علل سوق أخبار الأمم السابقة، وحكاية تواريخهم في نصوص الوحيين جميعًا: ﴿فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٦]، ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [يوسف: ١١١]

وضرورة العناية بقراءة التاريخ رصدًا وتحليلًا وتقويمًا، لاستشراف المستقبل وتصحيح الخلل في السلوك ونقد المناهج؛ لا تقتصر على ما هو متعلق بالأمم السابقة فقط، فنحن نعلم أن الله عز وجل قد قضى بخاتمية رسالة محمد صلى الله عليه وسلم، وأن الوحي قد انقطع إلى قيام الساعة، ونعلم أيضًا أن العصمة قد ماتت في البشر بموت محمد صلى الله عليه وسلم.

في حين أن تدين الناس قد بدأ -في وقت مبكر بعد انقطاع هدى السماء وموت الرسول- يناله من صنوف التحريف، والتأويل، والخفوت، والغلو، والانتحال، والإبطال، وتشعبت مسالك الباطل، وتنوعت، وأمست تغير جلدها مع كل جيل تأصيلًا وتفريعًا بحيث يستعصي حصرها.

فلا بد إذن أن هذه الشريعةَ -مع حثها على العناية بالتصحيح والتقويم المستمر- متضمنة لقواعد تكفُل -للمتحاكم إليها- كشفًا عن مواطن الخلل في المناهج والسلوك بوضوحٍ لا لبس فيه، وإلا لم تكن مستحقة لوصف الخاتمية والأبدية وعدم النسخ، وهذا ليس محل خلاف.

وعلى الرغم من هذا الاتفاق، لكنك تلمح أن مجرد تطريق مناهج الإصلاح في القرن الماضي وحده، يفتقر ولو إلى تعداد دقيق للأسماء والألقاب المختلفة، والأعداد، والفروقات الفكرية، ودقائق التباين المنهجية بين مدّعي الإصلاح من منطلق شرعي، فضلًا عن محاكمة هذه التجارب إلى أيّ معيار مبني على الوحي!

أما الوقوف على أنواع الخلل الحقيقية المانعة من تحقيق هذه الحركات والمناهج، وتلك الأفكار، للنجاح الذي يمكن اعتباره مكافئًا لدعاويها العريضة أولًا، ثم لامتداد زمن انطلاقها في حقل الإصلاح؛ فلا تسأل عنه!

غالب ما يمكن أن تجده، هو تسطيح لتجربة ما، والجزم بأن أسباب فشلها -على التسليم بفشلها-: «خلل علميّ معرفيّ» أو «سلوكيّ عمليّ»، أو الأمران جميعًا، ثم إتْباع ذلك بالدعوة إلى: (العودة إلى الوحي)، (التصفية والتربية)، (التوبة والعمل الصالح)، وهذا ليس من ورائه فائدة زائدة على التذكير بالمعلوم المذكور، فالجميع يعلم أنه لا بد أن يعود الخلل إلى أحد النوعين على الأقل، بل يمكن اعتباره معلومًا بالضرورة بين المتشرعة والمصلحين!

وأنا لا أجحد أن بعض ذلك النقد أو كثيرًا منه مفيد، وأن بعض المناهج والحركات الإصلاحية قد بدا عوارها، وظهر موطن الخلل فيها بما يستوجب النقد، ولكن الواقع أن هذا النقد غير المنبني على رصد شامل وتحليل ومحاكمة حقيقية إلى الوحي تستدعي قواعد الدين وفقه النصوص؛ يبقى جزئيًّا محدود الأثر، وهو مفيد بشرط فهم كونه كذلك، ضارّ جدًّا إذا حُملت كل نتائج التجربة عليه، ثم بُنيَت عليه حركةٌ إصلاحية، أو ابتُكر منهجُ تغيير بناء على هذا الرصيد الفقير من النقد، مع دعوى عريضة بالعض على الخلل بالناجذين، وإحكام المسألة المنهجية من قرنيها!



وهو بصورته تلك أحد العوامل الرئيسة لتشبث المنقود بفكرته، نعم ربما عدّل فيها أو غيّر، لكن يبقى هذا المستوى والقدر من النقد غير كافيين لكي يتخلى عنها.

ما الجديد؟

يزعجني هذا السؤال كثيرًا ويؤرقني، وليس المراد السؤال عن الجديد من الأفكار والأطروحات التي تم أو سيتم ترويجها والدعوة إليها كأساس مبتكر -أو مجترّ- لمنهج التغيير في المستقبل، فهذا موجود دائمًا مع -أو بعد- كل نكسة أو كبوة يمر بها جيل ما، أو فكر ما، في قُطر ما.

لكن المراد: **هل هناك ما هو أبعد من مجرد (فكرة)؟!**

إن الأفكار النقدية أو البنائية الطيبة الصحيحة في نفسها المستقاة من الوحي الذي هو دواء كل أدواء العقول والنفوس والمناهج والأشخاص والأفراد والمجتمعات في كل عصر -كثيرة، ومتنوعة، لكنها تبقى مجرد أفكار، ولا يمكن الترويج لها على أنها منهج إصلاحي، ومهما أخطأ المتطبّب اختيار دواء الداء، أو اقتصر على ما لا يجزئ منه؛ فاللوم عليه وحده، مع التسليم بأنه لا يختار إلا ما هو دواء في نفسه!

أما الجديد، فإني ما زلت أفتّش عنه فلا أعثر له على أثر، فلا أرى إلا نفس المشهد العبثي القديم المتكرر بعد كل كبوة!



هناك مَن يحصر القيام بحقوق الشرع في الصلاة والعبادة البدنية، والانكفاء على المسجد، ويتعاطى مع الحوادث تعاطي القدريّة الخلّص، وهناك من يصرّ على أن الحل يكمن في استمرار نفس الخطاب الوعظي السطحي غير المتفاعل مع الواقع، بل؛ غير العالم به في كثير من الأحيان.

هناك أيضًا مَن يلوك بعض المعاني المركّبة الدقيقة، كتأميم الدعوة الإسلامية، وفي الوقت نفسه يدعو إلى مسالك هي مجرد (فكرة) لا تجده يدلّل عليها نوع دلالة، كالانصراف التام عن سؤال السلطة، فضلًا عن الإجابة عليه، ويكتفي في تعليل وجاهة فكرته بالحرص على عدم إثارة السيد القمعي القابع على الكرسيّ، وبكل راحة بال يؤكّد أنه يميل إلى النظرية السياسية الماركسية، إلى أن يكون لدينا نظرية إسلامية، ويتجاوز أكثر مدخلات الواقع، المستجد منها وغير المستجد، لكي يحصر الإصلاح في البحث العلمي، والعمل الاقتصادي والاجتماعي، ولا يرى غضاضة من استمرار نقد مدعي الإصلاح وتسفيههم، وترك نقد السيد القمعي لأنه يراه بلا فائدة!

هناك من يرى الحل في التغيير الفوقي السلطوي، إما عن طريق السياسة الوضعية الغربية، أو حمل السلاح في وجه النظم المستبدة العميلة، دون أن يتعنى الفريق الأول إظهار الفارق بينه وبين من انماع في العقائد الوضعية الكفرية مع إلباسها لباس الشرعية قسرًا، ولا حرص الفريق الثاني على تبيين خطته في مواجهة نظام عالمي رافض لوجوده، وآلة حرب مريعة حريصة على الانقضاض عليه وتفتيته مع أول بادرة نجاح، كما فعلت بنظيره من قبل.

ومرة أخرى: إن عبثية المشهد لا تكمن في كون كل هذه المسالك ليست شرعية، وإن كان بعضها مجزومًا بمناقضته للشرع، وبعضها لم يسند إلى الشرع أصلًا، ولم يدلل عليه ولو نوع استدلال كما سبق، ولكن؛ في كونها مجرد جزئيات، لو صحّت في نفسها، ولم يتبين مصادمتها لبعض الوحي؛ فمن الخلل البالغ تضخيمها والعكوف من ورائها، وتصويرها على أنها بمجردها (منهج) إصلاح وطريق تغيير، فلا شك أن هذا لا يراعي التوازن والشمول في الإسلام.

وأعود فأقول: لا يعنيني -في المقام الأهم هنا- الدفع في اتجاه مسار معين أو ضده -تصويبًا أو تخطئة- بقدر ما يعنيني الحذر من القطع بنظرية غير منبنية على رصد وتحليل ودراسة بقدر معقول، مطَمئِن إلى حد يمكن أن تنبني عليه نهوج السالكين لعقود قبل أن نعاود نفس الكرّة!



الحل السحري

محمد علي يوسف

إنه ذلك الحل الذي ينتظره الجميع، وتلك الإجابة التي يظنون أنك قادر على أن تسقيهم إياها برشفة واحدة يسيرة، جُلهم ينتظر المنقذ والمخلص الذي يمتلك الحل ويعرف إجابة كل تلك الأسئلة الصعبة التي تحيط بنا.

نعم هي أسئلة صعبة، لا بد أولًا أن نعترف بذلك؛ فتلك هي بداية المشكلة حيث يضطر البعض لإنكار تلك الصعوبة، نظرًا للضغوط التي تمارس عليهم لإجبارهم على إيجاد الحل السحري السريع، ومن ثم يبحثون عن الوهم المعسول الذي يُغرقون فيه أتباعهم ومحبيهم بالتدريج، من خلال مخدرات فكرية وواقعية تمارس عليهم باستمرار، حتى تبدو الحلول التي يطرحها المفكر أو المنظر أو القيادي وجيهة ومنطقية في مواجهة تلك الأسئلة التي سهلتها تلك المخدرات والأوهام الفكرية.

لذلك لابد ابتداء من التخلص من تلك المخدرات الفكرية، التي يحرص البعض على بثها في عقول مريديهم، مصورين الأمور كلها سهلة وبسيطة، ومهونين من شأن المرحلة الحرجة التي نمر بها، وموهمين أتباعهم ومصدقيهم أن النصر أقرب إليهم من شراك نعالهم.

لا بد من الإقلاع عن تعاطي تلك المخدرات الفكرية، والنظر إلى الواقع جيدًا، لا لنيأس أو لنحبط ونقعد باكين على اللبن المسكوب، فتلك ليست خيارات أصلًا؛ بل لنحسن العمل والتأثير في إطار المتاح والممكن والواجب، ولتتكامل الرؤى بغية الوصول لأقرب الحلول من خلال التفكير الجمعي ذي الوحدات المتواضعة المتعاونة، وليس من خلال المنقذ الأوحد الذي يمتلك كل الحلول والإجابات.

علينا أولًا التحرر من تلك الأطروحات الوهمية لنستطيع أن نُقَيِّم الواقع تقييمًا سليمًا، وأن ندرك ببساطة أنه لا حلول سحرية، وأنه ثمة فارق ليس بيسير بين التحليل والتوصيف من جهة، وبين إيجاد الحلول الناجعة والسبل النافعة التي تمكن المرء من حل تلك المعضلات المحيطة من جهة أخرى.

البعض للأسف تذوب لديهم هذه الفوارق، فإما أن يهونوا التوصيف لكي تسهل الأمور ويجدوا حلولا سحرية مخدرة لا علاقة لها بحل المعضلات الحالية التي لا يعترفون أصلًا أنها معضلات كما بينت في السطور السابقة، وإما أن يختاروا الاستسلام كحل واليأس كخيار، وذلك حين يعترفون أن الواقع صعب وأن الحياة صارت قاسية والخلاص صار مستحيلًا. وأحيانا يكون الإحساس باليأس خيارًا مريحًا، خصوصًا اليأس من التغيير وفقد الأمل في الإصلاح، وقد يلجأ البعض إلى هذا الخيار دون شعور منهم، وربما دون تصريح؛ لكن لسان حالهم وربما بعض مقالهم يصرخ بتلك المحصلة التي وصل إليها سعد باشا قبلهم حين قال: «ما فيش فايدة».



ولو أن المرء استطاع أن يميز بين التحليل والتوصيف من جهة، وبين إيجاد الحلول من جهة أخرى، وأن يفرق أيضًا بين إيجاد الحلول المؤثرة والمغيرة، وبين القيام بواجب الوقت حتى لو لم يكن فيه الحل الجامع والعاجل =لاستقرت نفسه ولاستطاع أن يجد له مكانًا سديدًا في ذلك الواقع القاسي.

حين يجيد المرء التوصيف ليفاجأ بقسوة الوضع الراهن قد لا يجد حلًّا عاجلًا يستطيع أن يجزم من خلاله بالإجابة الصحيحة، التي من خلالها تفك طلاسم تلك المعضلات الآنية والمعادلات الصفرية؛ لكن ما ينبغي عليه هو أن يعلم ويتذكر أنه على الرغم من تلك الصعوبات والمعضلات فإنه لم يزل مكلفًا بواجب مهم: واجب الإعذار إلى الله.

والإعذار لا يشترط فيه أن يكون حلًّا آنيًا أو عاجلًا، والصدع بالحق على مدار التاريخ لم يكن دائمًا سبيلًا موصلًا لنهاية دنيوية سعيدة لمن قام به.

بل بمقاييس الدنيا كان الصدع بالحق والقيام بواجب الإعذار إلى الله في أحيان كثيرة طريقًا للاستضعاف والاضطهاد، وربما القتل بأبشع الوسائل من قِبَل من صُدع في وجوههم، وما كان صَلب السحرة وتقطيع أيديهم وأرجلهم من خلاف، وما كان قتل حبيب النجار مؤمن آل ياسين وغيره من الصادعين على يد قومهم، إلا نماذج خالدة توضح أن النجاة الدنيوية ليست شرطًا، ولو أن أصحاب الرسالة قد التفتوا لتثبيط المثبطين، وتخذيل المعوِّقين الذين لم يفرقوا بين التوصيف وبين التكليف، لما صنعوا شيئًا أمام معضلات واقعهم القاسية، ولكان مآل حالهم القعود واليأس، ولما أؤتمر بمعروف ولما نُهي عن منكر، ولما صُدع بحق أو أُبطل باطل.

لكن صاحب الرسالة يمضي في طريقه ولا يلتفت، ولا يُسلم أذنيه لأهل التثبيط والكسل واليأس والإحباط، وهو حين يمضي يضع نصب عينيه أمرين أساسين: أولهما: الإعذار إلى ربه والسعي لإرضائه. وثانيهما: الأمل في التغيير من خلال المتاح والممكن، ذلك الأمل الذي لا ينقطع وإن انقطعت الأسباب.

يظهر ذلك جليًّا في رد الناهين عن السوء في قصة أصحاب السبت، حين جاء المثبطون والمحبطون ليعوّقوهم وليكسروا عزائمهم، زعمًا منهم أنه لا فائدة ترجى من صنيعهم، فكان الرد حاسمًا ساطعًا براقًا: ﴿قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٤]

فإن لم يستطع المرء برؤيته العاجلة وتحليله للحالة المعاصرة ظاهرًا أن يجد أثرًا لما يفعل في تغيير الواقع، فليس هذا معناه أن التكليف قد سقط عنه ذلك، لأن الله لم يتعبده بالنجاح والثمرة، ولكنه تعبده بغرس الفسيلة وإن لم ير نتاجها، وكفى بالمرء شرفًا أنه حاول وغرس واستفتح وأعذر إلى ربه. إنها تلك القيمة التي لخصها النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث المشهور: «إذا قامت القيامة وفي يد أحدكم فسيلة فليغرسها». حتى في ذلك الظرف الرهيب الذي تيقن فيه أنه لن يأكل منها فإنه مُكلف بالغرس، مُكلف بالنفع المتعدي طالما كان ذلك بيده.

ربما كان الأمر على سبيل المبالغة في الحث على غرس الخير؛ فإن زلزلة الساعة شيء عظيم، تذهل فيها المرضعة عما أرضعت، ومن باب أولى يذهل حامل الفسيلة عن غرسها؛ لكن المعنى واضح والقيمة ظاهرة، معنى غرس الفسيلة بغض النظر عن إدراك ثمرتها وصنع الخير دون انتظار نتائجه العاجلة، وقيمة تجاوز الآمال الضيقة والعاجلة والأعمار المحدودة، ومخالفة طبيعة التمحور حول الذات، والتفكير أحيانًا في أن هناك شيئًا يقال له العطاء، ولا يدري المرء لعل الله يسوق له ثمرة ذلك العمل من حيث لا يحتسب.



المهم أن يقوم العمل ويقع النفع، المهم أن تُغرس الفسيلة، وأن يحاول ويبذل ولا يتوقف ولا يتثاقل طويلًا في انتظار الحلول السحرية، ولا يستسلم للحسابات المادية التي لا ينكر أحد ممن تلقوا علمًا شرعيًّا أن في دين الله اعتبارًا لها، ولتقدير المصالح والمفاسد وللمآلات المتوقعة والنتائج المفترضة؛ لكن ما يُنكر هو المبالغة في ذلك، وتكلفه بشكل يؤدي إلى تحول الدين إلى تنازل مستمر أو استسلام على طول الخط.

ولو أن كل تضحية أقدم عليها إنسان وكل موقف شرف وعزة وقفه أهل الإسلام سبقته كل تلك الحسابات المادية المعقدة، والمعادلات المتكلفة، والمخاوف المزعومة، والمرجوات والمطامع المتوهمة، والشروط التعجيزية، والرؤى الانبطاحية -لما صدع بالحق صادع، ولما ثبت على مبادئه ثابت، ولما أمر بمعروف آمر، ولا نهى عن منكر ناهٍ، ولاختفت من تاريخ المسلمين كل مواطن العزة والإباء، ولاندثرت في نفوسهم معاني التضحية والفداء، ولصار على مر العصور أقصى أمانيهم ومنتهى أحلامهم أن يرحمهم عدوهم، وأن يُبقي على حياتهم ظالمهم.

لكن الله سلم وقيض للحق أناسًا، يبذلون في سبيله كل غالٍ ونفيس، ويقفون لنصرته في كل موطن شريف، حتى لو أنفقوا في سبيل ذلك أموالهم، وبذلوا أنفسهم التي كانوا قد أيقنوا من قبل ذلك أنها ثمن رخيص لسلعة غالية، وأن البيع رابح فالله هو من اشترى، ليس هذا معناه إهمال الأسباب، أو التقصير في البحث عن التأثير والإثمار، ورفض نصح الناصحين، وعدم اعتبار حرص الحريصين على الأفضل؛ لكنه فقط وضع للنقاط على الحروف، ونبذ للتخذيل والتثبيط وأهله.

إنه نبذ لعبادة الثمرات والنتائج، وتعلق القلب الدائم بالأسباب السهلة والحلول السحرية، والذي قد يورث يأسًا وإحباطًا واستسلامًا وقعودًا في انتظار معجزة خارقة؛ مما يؤدي إلى توقف جهد التغيير، نظرًا لاستبطاء النتائج والتقصير في الواجب العيني بسبب استصعاب التغيير العام، إنما يُلقي الصادقون عِصِيَّهم، ويصدعون بما يدينون به لله به، وهذا ما يجب ابتداءً، وبعده أو معه تكون محاولة البحث عن حلول حقيقية تحرك هذا الوضع التقليدي الكئيب وتزحزحه إلى الأفضل، وبدون حلول سحرية.



الصدمة
استراتيجية المرحلة

محمد فرحات

لكل عصر من العصور سمة مميزة، تعبر عن أحداثه وطبيعته وتغيراته؛ فهناك مثلًا: العصر الحجري، والعصور الوسطى، وعصر النهضة.

ولو كان هناك سمة تميز هذا العصر الحالي، فهي بلا شك: السرعة، حتى إنه قد اصطلح على تسمية هذا العصر: بعصر السرعة؛ بل وصل الحال في العقود المتأخرة بأنها صارت تتميز بالسرعة الفائقة.

ومن الطبيعي مع هذه السرعة أن تكون التغيرات الحادثة في ثنايا هذه العصر سريعة أيضًا، وفي حالة التغيرات الكبيرة والجذرية نجد أنها لا تتسم بالسرعة فقط، بل تتميز كذلك بالحدة التي يمكن أن يعبر عنها: بالتغييرات الصادمة.

فالمتتبع للتغيرات المحورية على مختلف الأصعدة يجد أن الصدمة صارت قاسمًا مشتركًا وفاعلًا، يجعل من هذه الصدمة ليست مجرد خاصية، بل استراتيجية يسعى إليها من يبحث عن تغيير كبير وفعال.

الصدمة السياسية

في مقابلة لها مع صحيفة الواشنطن بوست (بتاريخ ٩/ ٤/ ٢٠٠٥م) دشنت (كونداليزا رايس) وزيرة الخارجية الأميريكية السابقة، مصطلحًا سياسيًّا جديدًا وغريبًا، مصطلح: الفوضى الخلاقة!

كانت تتحدث عن التغييرات السياسية المطلوبة في العالم بصفة عامة، والشرق الأوسط بصفة خاصة، والتحول (الديموقراطي) المنشود، فصاغت لنا هذا المصطلح الذي يعبر عن استراتيجية أميريكية جديدة.

يتم بها تشكيل ملامح المنطقة، وتغيير تركيبتها، واستبدال الأنظمة التي انتهت صلاحيتها، وفقًا للمعايير الأميريكية!

لقد لخص هذا المصطلح الصادم السياسات الأميريكية حرفيًّا؛ فالتدخل الأميريكي العسكري على الأرض، وإقدامه على احتلال العراق وأفغانستان شكّل الملمح الأول من ملامح استراتيجية الصدمة الأميريكية، لتحقيق التغيير المنشود.

لكن ليست هذه هي الصدمة الوحيدة، بل هناك مؤشرات ودلائل تترابط خيوطها؛ لتشكل ملمحًا آخر يحمل بصمات الصدمة الأميريكية.

فالثورات الملونة مثلًا يعدها بعض المحللين من ملامح الصدمة التغييرية على الصعيد السياسي، و(الثورة الملونة) هو مصطلح يطلق على أعمال الحركات والعصيان المدني لإحداث تغيير سياسي في بلد ما، وسميت بالملونة لاستخدام المحتجين لرمز موحد أو لون موحد يتخذونه كشعار لهم.

بدأت تلك الثورات بالثورة في صربيا على حكم (سلوبودان ميلوسوفيتش)، والتي قامت بها حركة (أوتبور) الاحتجاجية، ثم تم الكشف بعد ذلك أن تلك الحركة لم تكن بعيدة عن التأثير الأميريكي.

ففي مقال بعنوان: (من الذي أسقط ميلوسوفيتش بالفعل؟)، كتب روجر كوهين (بتاريخ: ٢٦/١١/٢٠٠) على لسان (بول مكارتي) مدير (منظمة المنح الديمقراطية الأمريكية)، أن منظمته قدمت لأوتبور ٣ مليون دولار بين عامي ١٩٩٨ و٢٠٠٠م، بل وأقر (مكارتي) أنه التقى قادة الحركة عدة مرات.

مما يفتح الباب للتساؤلات حول دور أميريكا في سائر الحركات الاحتجاجية، و بخاصة ثورات الربيع العربي؛ فهل كانت هي المحرك؟ أم أنها دعمت ووجهت؟



لا أحد يقطع بإجابة شافية، لكن مما لا شك فيه أن أمريكا أقرت هذه التغيرات الحادة والصادمة، في المجتمعات التي طالمت رعت أنظمتها الديكتاتورية العريقة، وأن الصدمة كانت هي الاستراتيجية الوحيدة لعلاج حالة الركود السياسي الذي خيم على المنطقة لعقود متطاولة.

الصدمة الاقتصادية

في كتابها الشهير: (عقيدة الصدمة)، تسلط (ناعومي كلاين) الضوء على استراتيجية اقتصادية بدأت تتشكل ملامحها في النصف الثاني من القرن الماضي، استراتيجية: الصدمة الاقتصادية.

تم طرح تلك الاستراتيجية من قبل مجموعة من الاقتصاديين بجامعة شيكاغو، والتي اصطلح على تسميتها بمدرسة شيكاغو الاقتصادية، وعلى رأسهم الاقتصادي الشهير: (ميلتون فريدمان).

هذه المدرسة تبنت أيديولوجية الاقتصاد المفتوح، المتحرر تمامًا من أي قيد أو رقابة عليه، ويرفض أي تدخل للحكومة في حركة الاقتصاد، هذه الاقتصاد المفتوح قادر تمامًا -في رأي فريدمان ومدرسته- على التكيف وإصلاح نفسه بنفسه، دون أي تدخل من الحكومة بين أصحاب رأس المال والمستهلكين.

ولكن كيف يتم التحول من حالة الرقابة الحكومية والتدخل الحكومي (سواء الجزئي أو الكلي) في حركة السوق، إلى التحرر الكامل والاقتصاد المفتوح؟

هنا يأتي دور نظرية الصدمة الاقتصادية؛ حيث يتم استغلال حالة من الصدمة التي تعتري المجتمع جراء حدث معين لتغيير التركيبة الاقتصادية في المجتمع، واتخاذ إجراءات تحررية ما كانت لتتم بغير وجود هذه الصدمة، أو الكارثة.



يقول (ميلتون فريدمان): «وحدها الأزمة، سواء كانت الواقعة أم المنتظرة، هي التي تحدث التغيير الحقيقي، وعند حدوث الأزمة تستند القرارات المتخذة حيالها على الأفكار الممهدة لها، وهنا تأتي -على حد اعتقادي- وظيفتنا الأساسية، وهي أن نطور بدائل للسياسات الموجودة، وأن نبقيها حية ومتوفرة إلى حين يصبح المستحيل في السياسة حتمية سياسية».

و ضربت (ناعومي) مثالًا لهذه الاستراتيجية بما حدث بعد إعصار (نيو أورلينز) عام ٢٠٠٥؛ فلقد تم استغلال ما حدث في ذلك الإعصار، من تدمير للمدارس، لتغيير النظام التعليمي تمامًا، وتحويله بالكامل إلى التعليم غير المجاني، وفي يوم واحد، وبمجرد صدمة واحدة، تم إنجاز ما عجز عنه عتاة الرأسمالية في أعوام كثيرة لخصخصة التعليم.

و هذا ما حدث كذلك في سيريلانكا عام ٢٠٠٤م عندما ضرب (تسونامي) بعض المناطق الساحلية، مخلفًا كارثة إنسانية كبيرة تمثلت في مقتل وتشريد الآلاف، وتدمير قرى بأكملها، وبالطبع كان أتباع مذهب الصدمة جاهزين!

فلقد انهالت العروض من المستثمرين لإعادة إعمار الساحل المدمر، ولكن بدلًا عن إعادة ترميم القرى التي تدمرت، تم التعاقد على إنشاء منتجعات سياحية فاخرة، وتم حرمان الصيادين الفقراء من قراهم ومصدر رزقهم، لصالح الرأسمالية الجشعة.

وخرجت التصريحات الحكومية لتزف للشعب المنكوب: «إنه من خلال ضربة عنيفة للقدر قدمت الطبيعة -على حد تعبيرهم- إلى سيريلانكا فرصة فريدة من نوعها، وسيولد من رحم هذه المأساة مقصد سياحي ذو مستوى عالمي». إنها حقًّا رأسمالية الكوارث!

الصدمة الاجتماعية

التغييرات الاجتماعية في عصر الصدمات اعتمدت أيضًا على نفس الاستيراتيجية الصادمة، التي تعتمد بالأساس على فكرة كسر الحواجز النفسية والفكرية تجاه نمط سلوكي أو اجتماعي معين.

ويتم هذا بأسلوب عنيف صادم ومفاجئ، وبالتالي يتم استغلال نقطة ضعف بشرية، فسيولوجية وسيكولوجية، حيث تصاب وظائف الإنسان بنوع من الشلل المؤقت تجاه المواقف الصادمة، كرد فعل دفاعي لحفظ الإنسان من أثر الصدمة. وبواسطة هذا الشلل يتم تمرير الفكرة من خلال هذه الثغرة اللاشعورية.

وهنا يتحقق الهدف قصير المدى: كسر الحاجز الأول، واتخاذ أول خطوة نحو الهدف المنشود، ثم يعقب ذلك تحقيق الهدف طويل المدى: تثبيت التغيير، وهذا يعتمد بالأساس على مدى حدة رد الفعل الأولى؛ فلو كان رد الفعل بسيطًا أو منعدمًا يتم تحقيق الهدف المنشود، ثم الإعداد لجولة جديدة.

مثال على ذلك: قالت هدى شعراوي: «ورفعنا النقاب أنا وسكيرتيرتي سيزا نبراوي، وقرأنا الفاتحة ثم خطونا على سلم الباخرة مكشوفتي الوجه، وتلفتنا لنرى تأثير الوجه الذي يبدو سافرًا لأول مرة بين الجموع، فلم نجد له تأثيرًا أبدًا لأن كل الناس كانوا متوجهين نحو سعد، متشوقين إلى طلعته». [(المرأة المصرية) لدرية شفيق ص١٣٦، نقلًا عن (عودة الحجاب) للدكتور محمد إسماعيل المقدم (١/١١٠)]

فمر الموقف، ومرت الصدمة الأولى، صدمة نزع المرأة لنقابها، وظهورها لأول مرة سافرة أمام الناس، لكن بقيت جولات حتى تم لهم ما أرادوا، ونزعت المرأة المسلمة حجابها، واستعدوا لجولات جديدة!

أما لو كان رد الفعل حادًّا لتم التراجع التكتيكي لامتصاص الغضب، ولكن هذا التراجع لا يكون إلى المستوى الأول

الذي كان عليه الحال قبل الصدمة، ولكن إلى مستوى أعلى قليلًا يتم فيه تمرير هدف آخر، وبالتالى يتم كسب جولة مؤقتة، واحتلال بقعة جديدة.

تأمل مثلًا ما حدث من أمر (الناشطة) المحتجة عن طريق خلع ملابسها، والتعري الكامل، بالطبع كانت ردة الفعل قوية وغاضبة، وصاحبتها صدمة كاملة في المجتمع, فأعقب ذلك نوع من التراجع التكتيكي؛ لكن بالطبع المجتمع الذي تعرض لصدمة التعري الكامل لن يستنكر كثيرًا ما يراه، وما سيراه من التعري الجزئي، وهنا سيكون استنكاره لمن ترتدي بعض الملابس القصيرة، أو الضيقة جزءًا من التاريخ.

قس على هذا النمط ما يطرأ على المجتمع من دعوات يقوم بها بعض (الناشطين)؛ كدعوات: يوم القُبلات، ويوم الأحضان الحرة (Free Hugs)، ومهرجانات الإلحاد... إلخ. ولا زالت تتوالى الصدمات!

كيف نتعامل مع الاستراتيجيات الصادمة؟!

الصدمات السياسية والاقتصادية ليست من الشأن العام بالمقام الأول، بل هي من مسؤولية الدول والحكومات التي عليها أن توفر الحلول والبدائل لمواجهة الصدمات والتعامل معها.

أما الصدمة الاجتماعية فهي مسؤولية مشتركة بين الأفراد والحكومات، وكفاءة المقاومة ترجع إلى مدى سلامة منظومة الدين والقيم المجتمعية لدى الأفراد والعموم. وبالنسبة لمجتمعنا للأسف حققت هذه الاستراتيجية نتائج مبهرة، ومن المتوقع في ظل سطحية وهشاشة المنظومة الدفاعية، مع الحرب الشرسة التي تشنها تيارات التغريب والتخريب، أن يكسب هؤلاء جولات جديدة.

و الأحاديث بذلك شاهدة؛ فعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لا تقوم الساعة حتى يتسافدوا في الطريق تسافد الحمير». قلت: إن ذلك لكائن؟ قال: «نعم ليكونن». [السلسلة الصحيحة: ٤٨١]

و الحل؟! لا حل مع هذه الاستراتيجية في ظل غياب منظومة الردع السلطوية، وضعف المؤسسة الدينية الرسمية وابتعادها كثيرًا عن دورها المنشود، إلا بتقوية منظومة الدفاع القيمية المجتمعية، عن طريق فضح هذه الممارسات، والتوعية المستمرة لهذه المخططات، وغرز المضادات القيمية في الوجدان الجمعي؛ لإبطال مفعول الصدمات المفاجئة.

مع التعامل بحرص مع هذا الملف الشائك، حتى لا تؤدي تلك الجهود إلى المساهمة في نشر هذه القيم الصادمة بغرض التوعية منها، وهو من الأخطاء الدعوية الشهيرة.

﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف:٢١]



شبهات نورية حول الموقف من الانقلاب

حسام عبد العزيز

ماذا ينقم رافضو الانقلاب من الدعوة السلفية وحزب النور؟ ما العيب في أن يرفض الحزب التظاهر؟ ما المشكلة إذا كان الحزب قد قرر أن يصحح أخطاء الإسلاميين وألا يلقي بنفسه إلى التهلكة؟ لماذا لا نعتبر موقف الحزب والدعوة اجتهادًا؟ ألم ينسحب جيش النبي في مؤتة؟

تلك الأسئلة هي التي ستسمعها في أي نقاش حول موقف الدعوة السلفية وحزب النور من انقلاب يوليو. أسئلة تصوِّر جميعها أن مشكلة رافضي الانقلاب مع الحزب سببها الوحيد هو رفض الحزب والدعوة الخروج في المظاهرات. وهو ادعاء كاذب.

وأقول إن أغلب فتاوي الدعوة السلفية في تحريم المظاهرات حاليًا تستعين بأدلة الخروج على الحاكم بقياس فاسد؛ فالمظاهرات وسائل مستحدثة لإنكار المنكر على الحاكم، وهو مباح؛ بل يجب عند القدرة ولو تعرض صاحبها إلى الأذى. بل إن حزب النور نفسه كان قد هدد في الثلاثين من مايو بثورة جديدة لتوقيف د. ياسر برهامي في مطار.

وقد اجتمع يومًا أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقالوا: والله ما سمعت قريش هذا القرآن يجهر لها به قط، فمن رجل يسمعهموه؟ فقال عبد الله بن مسعود: أنا. قالوا: إنا نخشاهم عليك، إنما نريد رجلًا له عشيرة يمنعونه من القوم إن أرادوه. قال: دعوني فإن الله سيمنعني. قال: فغدا ابن مسعود حتى أتى المقام في الضحى ، وقريش في أنديتها، حتى قام عند المقام ثم قال: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَـٰنِ الرَّحِيمِ رافعًا بها صوته، ﴿الرَّحْمَـٰنُ عَلَّمَ الْقُرْآنَ﴾

استقبلها يقرؤها، وتأمّوه فجعلوا يقولون: ما قال ابن أم عبد؟ ثم قالوا: إنه ليتلوا بعض ما جاء به محمد. فقاموا إليه فجعلوا يضربون في وجهه وجعل يقرأ حتى بلغ منها ما شاء الله أن يبلغ، ثم انصرف إلى أصحابه وقد أثروا بوجهه. فقالوا: هذا الذي خشينا عليك. قال: ما كان أعداء الله أهون علي منهم الآن، ولئن شئتم لأغادينهم بمثلها. قالوا: لا، حسبك، فقد أسمعتهم ما يكرهون. [ابن هشام (١/٣١٤، ٣١٥) أسد الغابة (٣/٣٨٥، ٣٨٦) القرطبي في تفسيره (٧/ ١٤٧) ، الطبري في تاريخه (٢/ ٣٣٤، ٣٣٥)].

فتأمل كيف عرَّض ابن مسعود رضي الله عنه حياته لخطر الموت دون نكير من النبي صلى الله عليه وسلم، فلم يقل له أنت تلقي بنفسك إلى التهلكة ولا تعد لمثلها!

ويردد قادة الحزب والدعوة وأتباعهم أننا صرنا في مرحلة استضعاف، وأن الصبر على الأذى هو واجب المرحلة وأن النبي لم يقاتل في مكة، وهذا من أعجب ما يقولون؛ فهل لم يكن ابن مسعود صابرًا عندما خرج ليجهر بالقرآن أمام المشركين معرضًا نفسه للقتل؟ وما الصبر إن لم يكن الإنكار على البغاة الظلمة، وتحمل القتل والتنكيل وإحراق المسلمين أحياء وأمواتًا في سبيل نصرة الحق؟!

وقد جاء في قصة الساحر والراهب أن الغلام قد دل الملك الكافر على طريقة يقتله بها كي يؤمن الناس، فهل تضنون على رافضي الانقلاب أن يبذلوا دماءهم ليعرف الناس حقيقة هذا الحاكم الظالم الذي أزاح مرسي ليمنعه من تكوين إمبراطورية إسلامية؟! (حوار منشور بتاريخ الثالث من أغسطس بصحيفة واشنطن بوست)

وهل طالب أحد حزب النور أصلًا برفع السلاح حتى يقولوا إن النبي لم يقاتل في مكة؟! بل قد ثبت أن النبي ما انتقل من الدعوة السرية إلى الجهرية إلا في مكة. وإنما طالبنا حزب النور بالجهر بالحق، أو الاعتزال على أقل الأحوال وعدم المشاركة والتعاون على الإثم والعدوان.

ويتساءل النوريون: ألم ينسحب جيش النبي في مؤتة وسماهم النبي كرارًا؟ قلت: وهو دليل عليهم! فكيف ابتدأ النبي حربًا بثلاثة آلاف مقاتل مع أحد أقوى جيشين على الكرة الأرضية وأكثرهم عددًا؟ وقد كان المتوقع أن يقابل هذا الجيش عشرات الآلاف من مقاتلي الروم، وبالفعل واجه الصحابة مائتي ألف (مائة ألف من الروم ومائة ألف من الغساسنة).

ومن العجائب الأخرى الاستدلال بموقف ابن عمر والحسن البصري في رفض الخروج على الحجاج، رغم أن القول بحرمة الخروج على المتغلب لا يجيز إجماعًا السكوت على منكره؛ فإن ابن عمر لم يشارك في قتال ابن الزبير وقد كان ينهاه، وقال للحجاج كذبت وقال يا عدو الله. أما الحسن البصري فقد كان يذم في الحجاج في مجالسه، حتى أوشك الأخير أن يقتله.

والتناقضات في مواقف وفتاوي الحزب لا يمكن حصرها؛ فإنك ترى الحزب الذي يرفض التظاهر الجيش والشرطة - بدعوى أن القوى غير متكافئة- مستدلًّا بانسحاب جيش النبي في مؤتة، وهو نفس الحزب الذي اعتبر الحل السلمي للأزمة السورية خيانة للجهاد، على الرغم من أن الجيش الحر يواجه هناك الجيش السوري النظامي وميليشيات حزب الله والدعم الإيراني الروسي بالمال والسلاح، وعلى الرغم من أن ما يحدث هناك يعد عملًا مسلحًا أقرب كثيرًا لمثال مؤتة من تظاهرات مصر. فإن قالوا إن بشار نصيري كافر قلنا لهم وجيش الروم كفار أصليون محاربون فوجب الانسحاب من المعركة هناك (وفقًا لمنطقكم). (راجع منشورًا على موقع «فيس بوك» بتاريخ ٦ مايو ٢٠١٣ لشريف طه عضو الهيئة العليا لحزب النور آنذاك).



وهذا ليس المثال الوحيد على التناقض الذي هو من جنس لحن القول الفاضح؛ فالحزب الذي يرى التظاهر ضد الشرطة والجيش جنونًا - رغم تصريح السيسي ونبيل فهمي بأن الانقلاب غرضه منع تأسيس دولة إسلامية - هو نفس الحزب الذي هدد بثورة جديدة من أجل توقيف د. ياسر برهامي في المطار لساعات في عهد مرسي!

وثمة نموذج ثالث على هذا الخلل، فمن أجل تصريح لصفوت حجازي قال فيه «اللي يرش مرسي بالميه أرشه بالدم» اعتبر د. ياسر برهامي الخطاب الرابعاوي خطابًا إجراميًّا؛ فماذا قال د. ياسر برهامي عن تصريحي السيسي ونبيل فهمي بأن الإطاحة بمرسي غرضها منع تكوين دولة إسلامية؟! هل قال إنه تصريح إجرامي؟! هل رأينا استنكارًا لقتل آلاف المسلمين في رابعة كنصف الاستنكار الذي تطفح به بيانات الحزب لمقتل ضابط جيش أو شرطة؟! هل رجع د. ياسر برهامي عن قوله: «إن السيسي حريص على الدماء».بعد الدماء التي سالت في رابعة والنهضة ورمسيس؟!

ومن أعظم التناقضات أن الدعوة السلفية رفضت المشاركة في الانتخابات البرلمانية ٢٠١٠م، لأن المشاركة ستسمح بالإقرار بباطل كالديمقراطية والعلمانية والحريات المطلقة؛ فكيف شارك حزب النور في لجنة الخمسين التي وافقت على أن مصر نظامها ديمقراطي والسيادة للشعب وحده؟ والتي استحدثت مادة تلزم الدولة بالاتفاقيات الدولية المحرمة التي وقعت عليها مصر كالسيداو وغيرها؟

إن قالوا إن المشاركة لتقليل الشر، قلنا ولماذا لم تكن المشاركة في انتخابات ٢٠١٠ تقليلًا للشر وقلتم وقتئذ لا تجوز لأنها تتضمن إقرارًا بباطل؟ (راجع مقال المهندس عبد المنعم الشحات بتاريخ ٢ ديسمبر ٢٠١٠ بعنوان: نصائح بعد الانتخابات «لا تحزن - لا تشمت - لا تتعجل - لا تتوقف»).

بل إن الحزب تنازل عن كلمة «مذاهب أهل السنة والجماعة» في المادة ٢١٩، التي ادعى الحزب أنها تفرض سياجًا واقيًا من خطر «الفكر الشيعي. (انظر مقالًا لدكتور ياسر برهامي بعنوان: « لماذا نصر على المادة ٢١٩ « بتاريخ الثامن من سبتمبر).

وقال القيادي بحزب النور خالد علم الدين أن الحزب فتح بالتنازل بابًا لخرم أي إجماع بقول شيعي، في تأكيد ضمني على أن إضافة كلمة «الأحكام المجمع عليها» التي احتفى الحزب بإضافتها كلمة ديكورية.



لم يكن أحد ليعترض على حزب النور إذا قرر عدم التظاهر وأعلن رفضه المشاركة في خارطة الانقلاب وخطابه، وقال إن ما حدث هو انقلاب على الشرعية وأنه متمسك بعودة الرئيس المنتخب، وأنه يطالب الفريق السيسي بأن يتقي الله ويطلق سراح الرئيس المنتخب؛ لكن الحزب -كما هو معلوم- شارك في خطاب الانقلاب وخارطته، وكانت أولى تصريحاته في وصف الانقلاب بأنه تصحيح مسار وثورة تصحيح، مؤكدًا أن الجيش لم ينقلب على الصناديق، وأن العسكر ينتمون إلى المدرسة القومية التي ترى الدين جزءًا من الشخصية المصرية!

تفالة القمّص

[من مذكرات ماري التي سربها الموت]

محمود توفيق

ثاني هجوم عقائدي حدث ضدي كان في الطفولة في شم النسيم، كنت أرتدي عُقدًا ذهبيًّا به صورة للسيدة مريم وفي حضنها المسيح رضيعًا، وسألتني طفلة مسلمة اقتربت وتفحَّصت الصورة، فأجبتها: هذه سيدتنا مريم، ومن هذا (النونو)؟، هذا ربنا وهو صغير، فضحكت الطفلة متعجبة من أن أقول إن الرب كان صغيرًا في حضن أمه، وتركتني واستدارت وهي تعتقد أنني بلهاء.

وردُّ فعلي كان بسيطًا جدًّا وطفوليًّا، لا ينم عن إنسانة عنيدة قوية الإيمان، وقفت وحدي قليلًا محتارة، ثم أخفيت العقد تحت قميصي مفضلة الاستمتاع بيومي، وذهبت أكلمها وأتودد إليها، وأنا لا أطمع في شيء أكثر من أن تنسى الأمر.

وانشغلنا أنا وهي بالركض خلف كرتها البلاستيكية الخفيفة فوق الحشائش المبللة، هي بالفعل نسيت الأمر تمامًا، وبرغم انشغالي بمطاردة الكرة تحت الشمس اللطيفة، إلَّا أن خيال عمي الذي مات منذ عامين أخذ يبزغ ويختفي أمامي، وشهادته تكاد تعلو على أنفاسي اللاهثة، وأخذت أفكّر بطريقة غير مرتَّبة في طفولة الإله التي تبدو لطفلة مسلمة بريئة ولثغاء اللسان فكرة مخبولة، بينما لا أحد حولي من المسيحيين كبارًا وصغارًا يفكّر في الأمر بنفس الطريقة، تلك كانت أول مرَّة يتوقَّف فيها أحد أمامي متعجِّبًا من الإله الرضيع، وكنت أقول لنفسي: أهي الطفلة الصغيرة مثلي تفهم أكثر من أبي وأمي وجدتي؟!

غيرت العقد من بعد شم النسيم بأيام قليلة، لبست عقدًا به صورة للمسيح الناضج الكبير، على أساس أن الوضع هكذا أفضل قليلًا، هكذا كان فهمي كطفلة.



ومن حسن الحظ، أنني لم أصادف طفلة مسلمة أخرى في الحدائق المفتوحة في السنوات التالية، تتعجَّب من صورة الرب المتجسِّد في هيئة إنسانية. إذًا أنا قدَّمت تنازلًا يناسب ما عبَّرت عنه الطفلة لا أكثر من أجل القبول، وتجاهلت ما لم يعبِّر عنه أحد في مواجهتي، أجَّلت البتَّ فيما بدأت أشرد فيه من بشريَّة الإله المحيِّرة، الإله الذي كان رضيعًا يومًا ما، كنت أشعر أنني في مواجهة أشياء أكبر مني عليَّ أن أحكم فيها وأنا طفلة تتهجَّى بعض الكلمات بصعوبة، هذا هو الجزء الشاق جدًّا في الأمر.

الحقيقة أنني تكيَّفت مع الشكوك التي بدأت تناوشني حتى صرت شابة، بدا لي كما لو أنني أستطيع التعايش معها لفترة طويلة، لكن كان هناك ما هو أهم وأكثر إلحاحًا، وهو تطبيع المسلمين لعلاقتهم بالمسيحيين والكنيسة كما نحن وكما هي، كان هذا أهم مائة مرة عندي من تطبيع علاقتهم بعقيدتنا، ليكن المسيح نبيًّا وليس إلهًا، لا مشكلة، المهم أن يتقبلونا نحن ويتقبلوا بيوت عبادتنا بنفس طيبة.

المثير للاستغراب في الأمر أن أحد أهم الجسور الممدودة لعلاقة ود وتقدير بين المسلمين من جهة، والكنيسة والمسيحيين من جهة أخرى، تتمثل في لجوء المسلمين للكنيسة والقساوسة من أجل فك السحر وطرد الأرواح النجسة وما شابه؛ الثقافة لم تمد جسورًا بنفس رصانة ومتانة الجسور التي مدَّها الجهل.

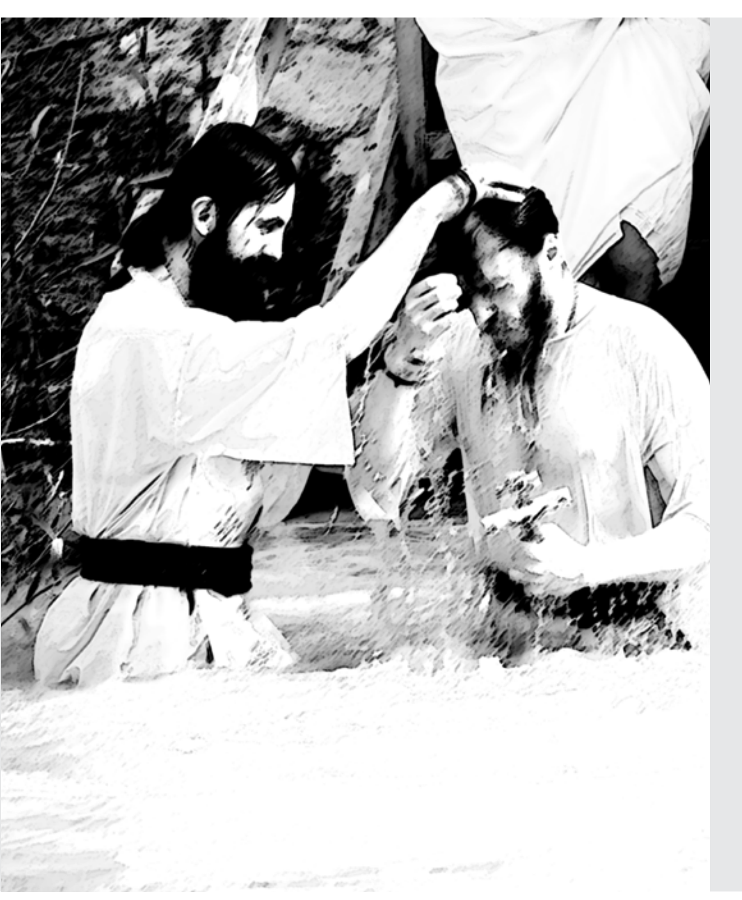
ورغم أنني على مسافة بعيدة من هذه الأمور، وتثير لدي شعورًا بالخوف والقلق والاشمئزاز، وترتبط عندي بالفئات الفقيرة والجاهلة، إلَّا أنني تورطت في الذهاب مع مدام فريال من أجل شفاء ابنتها الشابة من (عمل)، تقول إن أحدى جاراتها قد عملته للبنت حتى لا تتزوج، ففي آخر وأفضل فرصة خطوبة، فُسِخت خطوبتها لمهندس بترول ثري ووسيم قدَّم لها شبكة قيِّمة.

تأثرت من تلك التفاصيل التي حكتها لي، وإلحاحها على العلاج الكنسي رغم أنها مسلمة، كنت مترددة وخائفة، خائفة من هذه الخفة التي تدفعها إليها المصلحة، خائفة من أن يكون من خلفها ورغم كل شيء غياب الثقة والحس الغبي للمؤامرة، فتأتي يومًا وترمي إليَّ بقنبلة وتصرخ في وجهي: (نهار اسود! .. البنت عليها عفريت نصراني من ساعة ما رحنا معاكي الكنيسة)، لكنها ألحَّت عليَّ حتى ضعفت واخترت أن أرافقهما.

غلبني الحياء منها أكثر مما غلبني حب الفضول والمشاهدة. ومررت عليها في عملها في الشركة الـ... في وسط البلد، وأكلنا أنا وهي وابنتها (ساندويتشات كبدة) في الشارع بعد إلحاحها، فقد ظنت أنني أرفض من باب الحياء، تجربة كانت صعبة جدًّا من جميع نواحيها، بما فيها تمسح وإلحاح القطط الضالة التي كانت عند أرجلنا، أما هما فكان الأمر طبيعيًا جدًّا بالنسبة لهما.

وتوجهنا للكنيسة وهي مستبشرة ومقدامة، تتمنى فكَّ السحر الذي انعمل لابنتها، وأنا من ناحيتي كنت أتمنَّى أن لا نكون قد أصبنا بفيروس الكبد الوبائي من الساندويتشات الرخيصة.

نسبة ليست قليلة من المتواجدين كانوا مسلمين، والزحام غير طبيعي، والمناظر كان بعضها مرعبًا أو مثيرًا للغثيان، بنات يصرخن ويقعن على الأرض، ورجل يسيل اللعاب من فمه، وأغلب الناس قد استلموا آذان من بجانبهم يحكون عن مآسيهم الغريبة، وازداد الأمر إثارة بسير (القُمُّص) بين الناس وهو يحمل إبريق الميَّة المصلية (ماء مقروء عليه)، ونظرات الهلع على عيون من يرش على وجههم الماء، وعلى من يتفل بوجوههم كي تخرج الشياطين، وكنت أتلفَّت حولي كغريبة عن المكان بين الهمهمات والصرخات، أما مدام فريال وابنتها فكانتا متعايشتين مع المكان وما يدور حولهما أكثر مني!



كثيرون ممن رش القمص على وجوههم الماء يفيقون بسرعة ويبتسمون، معلنين عن شفائهم السهل البسيط، وبعض المسلمات كن يحاولن الارتماء في حضنه من باب الامتنان، وهو يتراجع للوراء، بعد أن يخبر الحالة أن المسيح شفاها. وأخيرًا جاء إلينا بعد أن ضقنا بالزحام واختناق الأنفاس، وقد حاولتْ بنت فريال أن تتجاوب مع القمص بطريقة تتفق مع خبرتها التي اكتسبتها مما يدور حولها، بأن تحرك عينيها بطريقة عصبية وتلوي فمها شمالًا، لكنها لم تكن مقنعة بشكل كافٍ، لا لي ولا للقمص، وقد أوصاها بأن تتخلَّص من أي أحجبة لديها فهي التي تتعبها وتعيق فك السحر لها.

وعدت للبيت مساء أراجع صور المشهد الغريب، ثم أخذت أفكِّر فيما قد تحمله الأيام القادمة، ربما تتزوج بنت فريال قريبًا، نعم، يا ليت، وربما لا، إلَّا أني تمنيت أن تتزوج قريبًا بأي طريقة، حملتُ همَّ هذا الأمر جدًّا؛ ليس لكي تؤمن بأن المسيح الرب يسوع قد شفاها، لكن لتؤمن بأن رجل دين مسيحيًّا شفاها، فتشعر بالود والتقدير تجاه رجل الدين المسيحي إن رأته في الشارع أو السوبر ماركت أو طابور البنك، لتؤمن بأنها شفيت داخل كنيسة، فلا تشعر بالضيق عندما تمر تحت جدار كنيسة أو تقع عيناها على الصليب أعلى برجها، هذا أقصى ما أريده من عامة المسلمين.

واستمررت على هذا الحال من التفكير في زواج كوثر بنت مدام فريال قبل النوم بشكل يومي، كحرصي على استخدام فرشاة الأسنان.

ولأن هذا التمني المنتظم لشفاء كوثر بنت مدام فريال مثَّل ضغطًا عاطفيًّا شديدًا عليَّ، كأني (مغسل وضامن جنة)، فقد قررت بناء على هذه التجربة أن لا أذهب مع أي مسلمة مهما كانت لتعالج داخل الكنيسة، لتكون هذه المرَّة هي الأولى والأخيرة، لأنه لن يمكنني أن أعيش حالة قلق في كل يوم يمر دون أن تحل المشكلة؛ وحالة التمني التي ألحُّ فيها على الرب كي يتحقق الحلم لأننا -كمسيحيين- بحاجة لذلك، شيء مرهق جدًّا ويولِّد شعورًا بالكبت، ذكرني بالضغوط التي كان يشعر بها المسيح إزاء الطلبات المستمرة للمعجزات والعلاج.

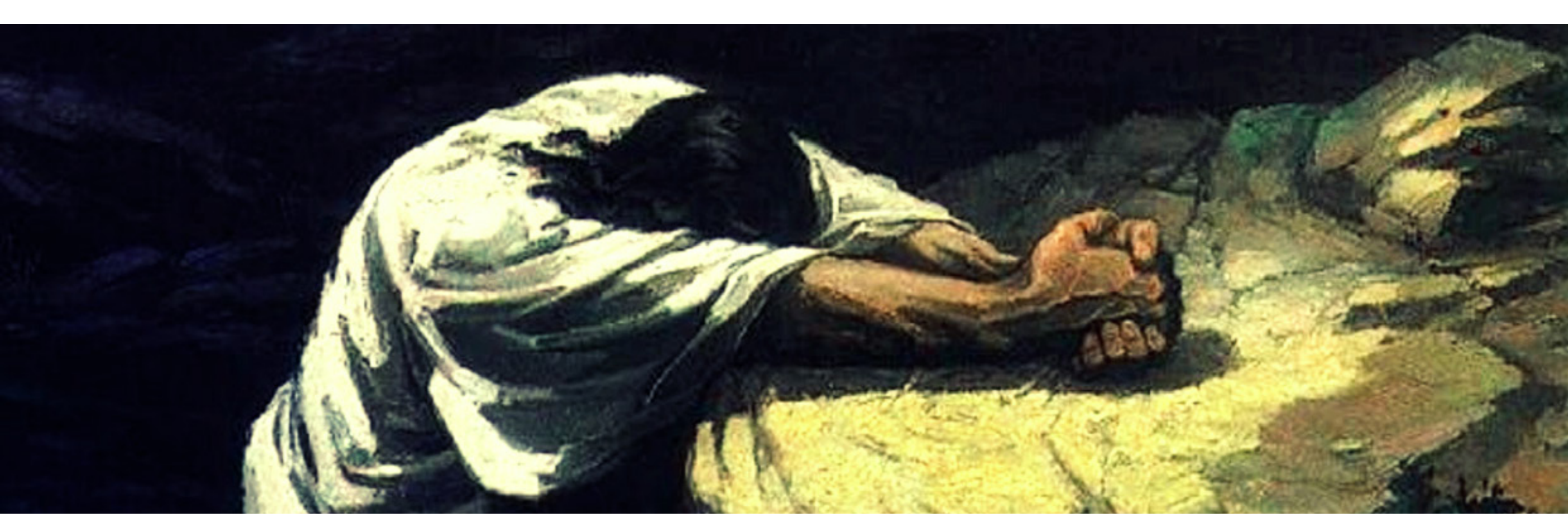
لكل هذا وضعت عني وجه جدتي الودود المتعاون الذي يحب تقديم النصيحة، ووضعت لنفسي وجه أمي البارد المتحفِّظ، وقلت لمدام فريال إنني لن أستطيع الذهاب معها للعلاج مرة ثانية بدون أن أبدي أسبابًا، وشعرت بالتخلص من عبء شديد عندما توقفت عن الصلاة من أجل ابنتها، تلك الصلاة التي كنت أعبر فيها للرب عن وقوعي تحت ابتزاز الأغلبية.

ثم من بعد ذلك عرفت من إحدى البنات أن كوثر على علاقة منذ فترة طويلة بشاب وسيم مستهتر في مثل عمرها، يعمل في مكتب تصوير مستندات بالقرب من الجامعة المفتوحة حيث تدرس، وهي متعلقة به تعلقًا شديدًا، وهناك احتمال أنه يقوم بنفسه بـ(تطفيش العرسان) عن طريق الاتصال بهم؛ لطمعه في شقتها التي تدفع أمها أغلب أقساطها، والأغرب أنني عندما ارتديت وجه جدتي الودود المتعاون مرة أخرى وواجهت أمها بكل اللطف والكياسة بهذه الحقائق حتى تستطيع تدارك الأمر، وجدتها تعرف تفاصيل التفاصيل، ومع ذلك مصرَّة على مسألة السحر الذي عملته الجارة، وعندها أيقنت أنني كنت محقة عندما وضعت على وجهي قناعًا خشبيًّا باردًا وطلبت منها أن تخرجني من أمر البحث عن علاج كنسي لفك السحر، وأيقنت أنني كنت ساذجة عندما ورَّطت نفسي في هذه المسألة بين نعامتين مسلمتين دفنتا رأسيهما في الرمال.

ورغم أن أمر معجزات الشفاء وما يتردد عن حالات مرضية مستعصية قد عولجت في غمضة عين وبالقليل من رش الماء والتفْل في الوجه، يمثل وسيلة تأثير لا يمكن إنكارها على قطاع كبير من البشر لست منه، لكن هذا الأمر لا يهمني أنا شخصيًّا كثيرًا، فالأمر مرتبط بالفئات الجاهلة والفقيرة في الغالبية العظمى من حالاته، ولا يخلو من الإيحاء واستغلال أوجاع الناس وأمراضهم النفسية، ورغبتهم في لعب دور الضحية بدلًا من مواجهة مشاكلهم بجدية ونضج.

أنا بالنسبة لي لم أستطع منع نفسي من الشعور بالاستغراب وأنا أرى الشياطين تخرج في ثوان من الممسوسين، النتيجة كانت عكسية بالنسبة لي، القمص ينهر الشيطان داخل الرجل ويقول له صوتك لا يعلو هنا أنت تحت (الجزمة)، فيهرب الشيطان، شيء في منتهى السهولة، الأمر مع القمص في هذا العرض أفضل كثيرًا مما حدث مع ربه المسيح، الذي أخذ إبليس يلاحقه ويضايقه ويقطع عليه طريقه ويحاول إغوائه لمدة أربعين يومًا كما جاء في الأناجيل، بل وفي إنجيل لوقا أن الشيطان تركه إلى حين (راجع لك).

لو علمتْ مدام فريال بقس متخصص في طرد الشياطين أخذ الشيطان يغريه لمدة أربعين يومًا ما ذهبت إليه للعلاج، إنها لا تدري كثيرًا عن المسيح ولا يهمها أن تدري، لا تدري أن ما أقوله حدث مع رب كل القساوسة. والعتب على إبليس الذي لا يميِّز، لم يعرف خالقه فوقف في طريقه يزعجه لمدة أربعين يومًا، ولا نعرف السبب الذي منع خالقه من وقف هذه المهاترة في ثوانٍ بأن يقول له: أنا الإله ولا يصح أن تجربني ولا يصح أن تحرضني على السجود لك، هذا لا يليق.



فحسب ظني، ممكن أن يتمنى إبليس في حالة هذيان طموحه أن يغوي نبيًّا، ولكن فكرة إغواء الإله في منتهى الغرابة، كيف ينحط إبليس ذهنيًّا لدرجة أن يغوي الإله بأن يعطيه ممالك العالم مقابل أن يسجد له الإله؟! الغريب أنه يقال إن الشيطان لا يتحمل رؤية الصليب، حضور الصليب يصيبه بالهلع، فكيف تحمل الحضور الإلهي من خلال مضايقة سمجة استفزازية طويلة؟! إلَّا إن كان إبليس يطارد نبيًّا في بدايات الدعوة ولا يطارد الله.

الغريب أن هناك من قفزت من بعيد كالضفدع إلى هذا المشهد بغير مناسبة، قفزت من طين الذاكرة، وبقوة دفع الهزائم الطفولية الأولى، لقد تخيلت طفلة الأمس المسلمة وقد اقتحمت خشبة هذا المسرح الهزلي المزدحم بالعاهات، اقتحمته بترهل وإحباط، تطلب العلاج، ويخيم على وجهها التعاسة مع الرجاء المفرط البليد، تحت تفالة القُمّص.